الصَّرْفَة بين القبول والرد

إعداد:

د. فاطمة محمد علي آل مرعي الشهري

أستاذ مساعد بقسم الدراسات الإسلامية بجامعة بيشة

من ٢١٠٣ إلى ٢١٨٦

الملخص

إن القرآن الكريم كتاب الله المجيد، ودستوره الخالد إلى عباده، ووحيه المترل على خاتم رسله ﷺ، وهو آخر الكتب السماوية نزولا، وأشرفها مكانة ومترلة، وهو المعجزة الإلهية الدالـة علـى صدق نبوة نبينا ﷺ ، الباقية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وأنه ليس في استطاعة أحـد مـن الإنس أو الجن أن يأتي بمثلها.

وبعد اتفاق المسلمين على إعجاز القرآن الكريم، تسابق العلماء المدققين منهم، لإبراز الجهة التي من أجلها أعيا القرآن العرب وهم أصحاب البلاغة والفصاحة, واللغة طوع لسانهم أن يـأتوا بسورة من مثله، فتعددت بذلك وجوه إعجازه، وتباينت آراءُ العلماء فيها، وأدلى كل واحد منـهم بدلوه، وحدد ما ارتآه، فعند بعضٍ إعجازه: إخباره بالغيب، وعند بعضٍ: جمعه للحقـائق والعلـوم، وعند بعضٍ: سلامته من التخالف والتناقض، إلى آخر الوجوه التي ذكرها العلماء، حـتى أوصـلها بعضهم إلى ثمانين وجها, وأشار العلماء المتأخرون إلى أن وجوه الإعجاز القرآني لا تنحصر في وجـه دون وجه، بل إن كل متأمل في كتاب الله يظهر له منها مالا يظهر لغيره، من أجل ذلك وجـدناهم قد أفاضوا في ذكر هذه الوجوه، حتى صرح السيوطي بقوله:" والصواب أنه لانهاية لوجوه إعجـازه ".

وجمهور العلماء من أهل السنة وغيرهم يذهبون إلى أن إعجاز القـرآن الكـريم في نظمـه البديع, وبلاغة وفصاحة ألفاظه ومعانيه, يقول ابن عطية في هذا:" وهذا هو القـول الـذي عليـه الجمهور والحذاق, وهو الصحيح في نفسه".

غير أن البعض قد خالف قول الجمهور, فذهب إلى أن وجه إعجاز القـرآن الكـريم هـو (الصَّرفة), ودار حول هذا الوجه جدل كثير؛ لهذا ذكره جل العلماء الذين أدلوا بدلوهم في قضـية إعجاز القرآن الكريم، وكان ذكرهم لهذا الوجه: إما على جهة التأييد والاحتجاج له، وإمـا علـى جهة المعارضة والنقض.

ومما يسترعي الانتباه ويستدعي التنبيه أن هذا القول لم يكن محصورا في قول زنديق ضـال, بل إن من أعلام اللغة والبيان من قال به ونافح عنه من المعتزلة والشيعة, بل نسب لكثير من علماء السنة الكبار, من غير تحقيق أو تمحيص.

كما أن اختلاف مفهوم الصرفة عند القائلين بها, واختلاف موقفهم من إعجـاز القـرآن بنظمه وبلاغته, وغموض مصدر هذا القول ونشأته, كل هذا جعل بحث هذه المسألة مـن الأهميـة بمكان.

Search summary

The Glorious Quran Allah's book, the immortal Constitution to worship, and vivid House to seal his messengers □, is the most heavenly books down, I would do her proud stature and his home, a divine miracle sincerity function prophecy of our Prophet □ Remaining that Allah inherits the Earth and all that is upon them, and that no one else can human or Jinn to come.

This, after Muslims Quran, raced them, auditors scientists highlight the side seeking the Quran Arabs owners the rhetoric and eloquence, and language at their tongues come to Surat from like, multiplying this miraculous nature of the object, the scholars differed, and made every one of them. Replicas, select the view, when some miraculous nature: tell him unseen, and when some: Juma facts and science, when some: of skewness and contradiction, to most scientists, even mentioned the faces that deliver some 80 head, scientists noted the Qur'anic miracle faces latecomers are not confined to the face without Face, but all pensive in Allah's book shows him her money appears to others, in order that we may so eloquently presented in these faces, until Al-suyooti said: "right and wrong that infinity of the miraculous nature of the object.

And the majority of scholars of Ahlus Sunnah and others argue that the Quran in its delightful, eloquent and pontificating language and its meanings, Ibn Atiyah on this: "that is to say the audience and the subtle, and is true to himself."

However, some had violated telling the public, went to the Quran is (pure), and on this face much debate; gel said scientists who 1973a Quran case, was mentioned this face: either support the protest, either on the opposition party.

It draws the alert requires that this statement was not confined to say stray heretic, but language flags and who said it and advocated for nonconformists and the Shiites, but many of the adult year scientists, without investigation or examination.

As pure concept difference when you say it, and the different positions of the Quran miracles and eloquence, and ambiguity of this source and origin, all that make this issue of utmost importance.

المقدمة

الحمد لله نحمده, ونستعينه, ونستغفره, ونعوذ بالله من شرور أنفسنا, من يهده الله فلا مُضِلَّ له, ومن يُضْلِل فلا هادي له, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١]. [١]

أما بعد:

فإن القرآن الكريم كتاب الله المجيد، ودستوره الخالد إلى عباده، ووحيه المنزل على خاتم رسله ﷺ، وهو آخر الكتب السماوية نزولا، وأشرفها مكانة ومنزلة، وهو المعجزة الإلهية الدالة على صدق نبوة نبينا ﷺ ، الباقية إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وأنه ليس في استطاعة أحد من الإنس أو الجن أن يأتي بمثلها.

---

[١] حديث خطبة الحاجة: أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٢/٦) رقم الحديث(٣٧١٩), وأبو داود في سننه, كتاب النكاح, باب في خطبة النكاح (٢٣٨/٢) رقم الحديث(٢١١٨), وابن ماجه في سننه, كتاب النكاح, باب خطبة النكاح (٦٠٩/١) رقم الحديث(١٨٩٢), والترمذي في سننه, كتاب النكاح, باب ماجاء في خطبة النكاح (٤١٣/٣) رقم الحديث(١١٠٥), والنسائي في سننه, كتاب عمل اليوم والليلة, باب ما يستحب من الكلام عند الحاجة (١٢٧/٦) رقم الحديث(١٠٣٢٦), وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٥٩١/١) رقم الحديث (٢١١٨).

ولما كان القرآن الكريم، هو حجة الرسول ﷺ البالغة، ومعجزته الدامغة، فقد تحدى به بلغاء العرب وفصحائهم، وهم مَنْ هم في البلاغة والفصاحة والبيان، والكلام كلامهم، ولم يتفوقوا في شيء كتفوقهم فيه، فكانوا يعرفون له قدره، ويتذوقونه بأسماعهم كما يتذوق المرء الطعام بلسانه، ومع ذلك عجزوا عن معارضته.

وقد أبان الإمام القاسمي عن مكانة العرب البيانية، وعجزهم أمام تلك المعجزة البالغة الباهرة، بقوله: " إن العرب هم الذين قد خُصُّوا من البلاغة والحِكم، ما لم يخص به الله غيرَهم من الأمم، وأوتُوا من ذَرابةِ اللسان ما لم يؤت إنسان، ومن فَصل الخطاب ما يقيّد الألباب، جعل اللهُ لهم ذلك طبعاً وخِلقة، وفيهم غريزةً وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويُدلون به إلى كل سَبب، فيخطُبون بديهاً في المقامات وشديد الخَطْب، ويرتجزون به بين الطَّعن والضَّرب، ويَمدحون ويَقْدحون، ويتوسَّلون ويتوصَّلون، ويرفعون ويَضعُون،....ومع بلوغهم إلى هذا الحد من صناعة الكلام، ووصولهم إلى ذروة البيان إلا أنه لم يتصدّ للإتيان بما يوازيه _أي القرآن_ أو يدانيه واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهضٌ من بلغائهم، على أنهم كانوا أكثر من حصَى البطحاء، وأوفر عددا من رمال الدهماء، ولم يَنْبض منهم عرق العصبيّة مع اشتهارهم بالإفراط في المُضادّة والمضارّة، وركوبهم في كل ما يرومونه الشطط، إن آتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر، وإن رماهم بمأثرة رمَوْه بمآثر، وقد جرّد لهم الحجة أولاً، والسيف آخرًا، فلم يعارضوا إلا السيف وحده، وما أعرضوا عن معارضة الحجة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطمّ على الكواكب، وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب "... ثم يختم حديثه بقوله: " وحيث عجز عرب ذلك العصر، فما سواهم أعجز في هذا الأمر، وقد مضى إلى الآن أكثر من ألف وثلاثمائة عام، ولم يُوجد أحد من معاديه البلغاء إلا وهو مُسلّم، أو ذو استسلام، فدلّ على أنه

ليس من كلام البشر، بل كلام خالق القُوَى والقُدَر، أنزله تصديقًا لرسوله، وتحقيقًا لمقوله ".[١]

هذا، وبعد اتفاق المسلمين على إعجاز القرآن الكريم، تسابق العلماء المدققين منهم، لإبراز الجهة التي من أجلها أعيا القرآن العرب وهم أصحاب البلاغة والفصاحة, واللغة طوع لسانهم أن يأتوا بسورة من مثله، فتعددت بذلك وجوه إعجازه، وتباينت آراءُ العلماء فيها، وأدلى كل واحد منهم بدلوه، وحدد ما ارتآه، فعند بعضٍ إعجازه: إخباره بالغيب، وعند بعضٍ: جمعه للحقائق والعلوم، وعند بعضٍ: سلامته من التخالف والتناقض، إلى آخر الوجوه التي ذكرها العلماء، حتى أوصلها بعضهم إلى ثمانين وجها, وأشار العلماء المتأخرون إلى أن وجوه الإعجاز القرآني لا تنحصر في وجه دون وجه، بل إن كل متأمل في كتاب الله يظهر له منها مالا يظهر لغيره، من أجل ذلك وجدناهم قد أفاضوا في ذكر هذه الوجوه، حتى صرح السيوطي بقوله:" والصواب أنه لانهاية لوجوه إعجازه ". [٢]

وجمهور العلماء من أهل السنة وغيرهم يذهبون إلى أن إعجاز القرآن الكريم في نظمه البديع, وبلاغة وفصاحة ألفاظه ومعانيه, يقول ابن عطية في هذا:" وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق, وهو الصحيح في نفسه".[٣]

غير أن البعض قد خالف قول الجمهور, فذهب إلى أن وجه إعجاز القرآن الكريم هو (الصَّرفة), ودار حول هذا الوجه جدل كثير؛ لهذا ذكره جل العلماء الذين أدلوا بدلوهم في قضية إعجاز القرآن الكريم، وكان ذكرهم لهذا الوجه: إما على جهة التأييد والاحتجاج له، وإما على جهة المعارضة والنقض.

---

(١) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي ٧٥/٢.

(١) يُنظر: معترك الأقران للسيوطي ١ /٣٥

(٣) المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي (٥٩/١).

ومما يسترعي الانتباه ويستدعي التنبيه أن هذا القول لم يكن محصورا في قــول زنديق ضال, بل إن من أعلام اللغة والبيان من قال به ونافح عنه من المعتزلة والشيعة, بل نسب لكثير من علماء السنة الكبار, من غير تحقيق أو تمحيص.

كما أن اختلاف مفهوم الصرفة عند القائلين بها, واختلاف موقفهم من إعجاز القرآن بنظمه وبلاغته, وغموض مصدر هذا القول ونشأته, كل هذا جعل بحث هــذه المسألة من الأهمية بمكان.

وبالنظر إلى الدراسات السابقة في هذا الموضوع, فقد تناول الصرفة تبعا جل من كتب في إعجاز القرآن وعلومه, وهناك من أفردها بالبحث والتأليف, أذكر منهم:

١- تثوير القول بالصرفة (دراسة في إعجاز القرآن الكــريم), للــدكتور محمود توفيق محمد سعد. (بحث منشور_ مكتبة وهبة بالقاهرة _ عام ١٤٢٧هـ).

٢- الصرفة: دلالاتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها, للدكتور سامي عطا.(بحث منشور في مجلة كلية الشريعة بجامعة الكويت, العــدد ٥١ عام ٢٠٠٢هـ).

٣- الصرفة, للدكتور محسن الخالدي. (بحث منشــور في مجلــة الجامعــة الإسلامية العدد الثاني عام ٢٠٠٤م).

٤- القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم (عرض ودراسة), للــدكتور إبراهيم التركي. (بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها العدد الثاني عام ١٤٣٠هـ)

٥- القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم (عرض ونقد), للدكتور عبد الرحمن الشهري (بحث منشور في مجلة الدراسات القرآنية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض, العدد الرابع عام ١٤٣٠هـ).

وقد أبلوا جميعا بلاءً حسنا في إبراز جوانب مختلفة من هذه القضية, ولكن مــا لفت نظري هو أن بعض الباحثين قد نسب القول بالصرفة إلى جملة من علماء السنة,

ومن هنا انطلقت للتحقق من هذه النسبة ومناقشتها, ولعلي بذلك قد وفقت في إضافة جديد إلى رصيد المعرفة العلمية.

ومن ثَم فقد رأيت الكتابة في هذا الموضوع تحت عنوان: (الصرفة بين القبول والرد).

أحاول من خلاله تحقيق جملة من الأهداف أهمها:

- بيان حقيقة الصرفة ومصدرها وأبرز القائلين بها.
- التحقق من نسبتها إلى جملة من علماء أهل السنة.
- ذكر أبرز من عارضها وردها من العلماء.
- بيان القيمة العلمية لهذا القول في إعجاز القرآن الكريم.

خطة البحث:

تكون هذا البحث من: مقدمة, وخمسة مباحث, وخاتمة.

المقدمة: وفيها: أهمية الموضوع, والدراسات السابقة, وأهداف البحث, وخطته, ومنهجه.

المبحث الأول: تعريف الصرفة ومصدرها وبواعث القول بها.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الصرفة.

المطلب الثاني: مصدر الصرفة.

المطلب الثالث: بواعث القول بالصرفة.

المبحث الثاني: القائلون بالصرفة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: قول النظام بالصرفة.

المطلب الثاني: قول الجاحظ بالصرفة.

المطلب الثالث: قول الرماني بالصرفة.

المطلب الرابع: قول الشريف المرتضى بالصرفة.

المطلب الخامس: قول ابن سنان الخفاجي بالصرفة.

المبحث الثالث: مناقشة نسبة الصرفة لبعض العلماء.
وفيه سبعة مطالب:
المطلب الأول: نسبة الصرفة لابن حزم .
المطلب الثاني: نسبة الصرفة للراغب الأصفهاني .
المطلب الثالث: نسبة الصرفة للرازي .
المطلب الرابع: نسبة الصرفة للقرطبي .
المطلب الخامس: نسبة الصرفة لابن تيمية .
المطلب السادس: نسبة الصرفة لابن كثير .
المطلب السابع: نسبة الصرفة للسيوطي .
المبحث الرابع: المعارضون للقول بالصرفة.
وفيه سبعة مطالب:
المطلب الأول: رد الخطابي للصرفة.
المطلب الثاني: رد الباقلاني للصرفة.
المطلب الثالث: رد القاضي عبد الجبار للصرفة.
المطلب الرابع: رد عبد القاهر الجرجاني للصرفة.
المطلب الخامس: رد ابن حمزة العلوي للصرفة.
المطلب السادس: رد الألوسي للصرفة.
المطلب السابع: رد الزرقاني للصرفة.
المبحث الخامس: القيمة العلمية لمذهب الصرفة.
الخاتمة: وفيها أهم النتائج.
الفهارس:
فهرس المراجع.
فهرس الموضوعات.

منهج البحث:

١- اعتمدت المنهج الاستقرائي والنقدي من خلال تتبع جزئيات هذا الموضوع, وعرض الأقوال وتصنيفها ومناقشتها ونقدها, كما لم يخلو البحث من المنهج التاريخي في تتبع نشأة الفكرة وتطورها.

٢- لم استقصِ كل من قال بالصرفة أو عارضها على سبيل الاستيعاب, وإنما ذكرت أشهرهم وأبرزهم في ذلك.

٣- حرصت على التعريف بكل من قال بالصرفة أو نُسبت إليه أو ردها, لإبراز الاتجاه العقدي له سواء كان من المعتزلة, أو من الشيعة, أو من أهل السنة (وأقصد أهل السنة بالمفهوم العام سواء من كان منهم على طريقة السلف أو على طريقة الأشاعرة).

٤- كتابة الآيات برسم المصحف وعزوها إلى سورها وتحديد أرقامها.

٥- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصيلة, مع الحكم على ما ورد في غير الصحيحين منها بذكر أقوال أهل هذا الفن في ذلك.

٦- توثيق النصوص والأقوال إلى مصادرها.

٧- عند التوثيق اقتصرت على ذكر اسم الكتاب, ومؤلفه, وموضع التوثيق, منعا للإطالة أما سائر بيانات الكتاب فاستكملتها في فهرس المصادر.

٨- تزويد البحث بفهرس للمراجع وآخر للموضوعات.

هذا وأسأل الله التوفيق والسداد والعون, وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المبحث الأول: تعريف الصرفة ومصدرها وبواعث القول بها.

المطلب الأول: تعريف الصرفة.

المطلب الثاني: مصدر الصرفة.

المطلب الثالث: بواعث القول بالصرفة.

المبحث الأول: تعريف الصرفة ومصدرها وبواعث القول بها

المطلب الأول: تعريف الصِّرْفَة :

الصَّرْفة في اللغة: الصرفة بفتح الصاد، وإسكان الراء على وزن فَعْلَة, وهي على وزن اسمِ المَرَّةِ, والصرف مصدر من الفِعْل صَرَفَ، بمعنى أَبَعَدَ، وصَرَفَ الشيء عن وجهـهِ إلى جهة أخرى، ومنه تصريفُ الرياحِ، وهو صَرَفُها من جهةٍ إلى جهة. (١)

قال ابن فارس: " الصاد والراء والفاء معظمُ بابهِ يدلُّ على رَجْعِ الشيءِ , من ذلـك: صَرَفْتُ القوم صَرْفاً، وانصَرَفُوا، إذا رجعتهم فرجعوا". (٢)

قال الخليل: "الصَّرْفُ: أن تصرف إنساناً على وجهٍ يريدهُ إلى مَصْرفٍ غير ذلك". (٣)

وقال الراغب الأصفهاني: " الصرف رَدُّ الشيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبداله بغيره". (٤)

والصَّرف:ردُّ الشئ عند وجهه، صَرَفَهُ يَصْرِفُهُ صَرْفًا فانصرف، وصَارَف نفسه عن الشئ: صرَفها عنه، وقوله تعالى: ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ [التوبة:١٢٧] أي أضلّهم الله مُجازاةً على فعلهم، وقوله عز وجل: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ﴾ [الأعراف:١٤٦] أي: أجْعَلُ جزاءَهُم الإضلال عن هداية آياتي، وقوله عز وجل: ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: ١٩] أي: ما يستطيعون أن يَصْرفُوا عن أنفسهم العذاب، ولا أن ينصُرُوا أنفسهم. (٥)

والصّرفُ: التقلُّبُ والحيلةُ، ومنه: التصرُّفُ في الأمور، وصرّفنا الآيات: أي بيّناها، وتصريف الآيات: تبيينها، والصرّفُ: أن يَصرفَ إنسانًا عن وَجْهٍ يُريدُه. (٦)

---

(١) ينظر : تهذيب اللغة ١٦١/١٢ [مادة: صرف].

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣٤٢/٣ .

(٣) العين ١١٠/٧ .

(٤) مفردات ألفاظ القرآن ٤٨٢ .

(٥) يُنظر: لسان العرب لابن منظور (١٨٩/٩) [مادة: صرف].

(٦) المرجع السابق.

وعلى هذا فإن مادة (صرف) عند أهل اللغة يدور معناها: حول الرجوع والتحول والتقلب، والمنع من جهة إلى جهة أخرى.

والصرفة عند العرب:هي كوكب منير, سمي بذلك لانصراف الحر عند طلوعه مع الفجر من المشرق وذلك الخريف, وانصراف البرد إذا غرب مع الشمس وذلك أول الربيع[١].

ويقال الصرفة: خرزة من الخرز التي تذكر في الأُخَذ يستعطف بها الرجال يصرفون بها عن مذاهبهم ووجوههم[٢].

ونلاحظ في هذه التسميات للصرفة أنها تدل على معنى التحول والتقلب من حال إلى حال.

وقد أصبحت الصرفة عَلَمَاَ بالغَلَبَةِ على هذه المقولة في إعجاز القرآن، وصيغت على وزن اسم المَرةِ للدلالة على أَنَّ هذا الصَّرْفَ صرف خاص. [٣]

تعريف الصرفة في الاصطلاح:

اختلفت عبارات العلماء في تعريف الصَّرفة اصطلاحاً:

فقال الرُّمانيُّ النحويُّ المعتزليُّ (ت٣٨٦هـ): "وأَمَّا الصَّرفَةُ فهي صَرْفُ الهمم عن المعارضة". [٤]

وقال أبو سليمان الخطَّابي البُستيِّ (٣٨٨هـ) في تعريفها هي: "صرف الهمم عن المعارضة وإن كانت مقدوراً عليها، وغير مُعَجَّزةِ عنها، إلا أن العائق من حيث كان أمراً خارجاً عن مجاري العادات، صار كسائر المعجزات" .[٥]

---

(١) لسان العرب (١٨٩/٩).

(٢) المرجع السابق.

(٣) يُنظر: التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١٠٣/١

(٤) النكت في إعجاز القرآن ١١٠ .

(٥) بيان إعجاز القرآن ٢٢.

وعَّرف الشريفُ المرتضى (ت٤٣٦هــ) الصَّرفةَ: بأنها سلبُ الله تعالى كُــلَّ مَــن رامَ المعارضةَ، وفَكَّرَ في تكلفها في الحالِ العُلومَ التي يتأتي معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم.[١]

وقد حاول ابن حَمزةُ العلويِّ (ت ٧٤٥هــ) استقصاء معاني الصرفة اصطلاحاً عنــد القائلين بها فقال: "واعلم أن قول أهل الصَّرْفِة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة لما فيه من الإجمال وكثرة الاحتمال كما سنوضحه:

التفسير الأول: أن يريدوا بالصِّرفةِ أنَّ الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة مــع أنَّ أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلةٌ من التفريع بالعجز، والاستِنْزال عن المراتــب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أنَّ الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن تنْزيله على وجهين:

أحدهما أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم.

وثانيهما أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم خــلا أن الله تعــالى صــرف دواعيهم عن تجديدها مخافةَ أن تحصل المعارضة.

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القســر عــن المعارضة، وحاصل الأمر في هذه المقالة أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه ".[٢]

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره العلوي:

---

(١) يُنظر: الموضح عن جهة إعجاز القرآن ص(٣٥).

(٢) الطراز للعلوي ٣٩١/٣

تفسيرا رابعا للصرفة: بأنها صرف همم العرب عن المعارضة مع عجزهم عنـــها,حفظاً لكتاب الله من التشويش وإدخال الشبهة على السفهاء وضعاف العقول، ولولا الصَّرفَةُ لطمع فيه من لا يستطيع الإتيان بِمثله [١].

وتفسيرا خامسا للصرفة: بمعنى الانصراف, فقد وقف العرب على إعجاز نظم القرآن وفصاحته وبلاغته, فصرفوا أنفسهم عن محاولة معارضته لما علموا ضعف قدرتهم عـــن مجاراته, فهي انصراف عن معارضة القرآن بعد تيقن عجزهم عن ذلك. [٢]

ولكن المعنى المشهور للصرفة: أنها منع العرب من معارضة القرآن ولولاها لاســتطاع العرب معارضة القرآن، والإتيان بمثله؛ لأن الذي يقول بها ينكر أن يكـــون القـــرآن معجزاً بأسلوبه وبلاغته وفصاحته، ويرى أن الإعجاز فيه بمضمونه ومعناه وما فيه من الإخبار بالغيب. [٣]

وعلى هذه الأقوال فالمحصلة متقاربة من حيث إنَّ العرب مصروفون عـــن معارضـــة القرآن، ويبقى الاختلاف في: كيفية هذا الصرف, ومدى قدرة العرب على المعارضـــة لولا المنع.

ولذلك قال القاضي عبد الجبار الهمذاني (٤١٥هـ): "واعلم أن الخلاف في هذا الباب أنا نقول: إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة لعلمهم بأنها غير ممكنة.... وهـــم – أي النَّظَّام ومَنْ معه – يقولون إن دواعيهم انصرفت مع التأَتي، فلأجل انصراف دواعيهم لم يأتوا بالمعارضة مع كونها ممكنةً، وهذا موضع الخلاف. وعلـــى المـــذهبين جميعـــاً أن دواعيهم قد انصرفت عن المعارضة". [٤]

---

(١) يُنظر: الحيوان للجاحظ ٩٠/٤

(٢) يُنظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد ٣٢٤/١٦

(٣) القول بالصرفة في إعجاز القرآن للدكتور عبد الرحمن الشهري ص (٢٧٤).

(٤) المغني في أبواب العدل والتوحيد ٢٣٤/١٦ .

المطلب الثاني: مصدر الصرفة

لم يؤثر عن أحد من السلف القول بالصرفة وجهاً لإعجاز القرآن الكريم، وإنما كان القول بالصرفة من الأقوال التي قيلت في إعجاز القرآن بعد بدء التصنيف والجدل في إعجاز القرآن، ولذلك فإن نشأة هذا القول كانت متزامنةً مع بداية الجدل والقول في وجوه إعجاز القرآن، وكان أَوَّل مَن جاهر بِها واشتهرت على يده هو إبراهيم بن سيار النظام البصري المعتزلي، (ت٢٢١هـ).

وفي تحديد المصدر الذي نبعت منه هذه الفكرة للباحثين رأيين مختلفين[١]:

الأول: يذهب إلى أنها فكرة مستقاة من التراث غير العربي، حيث يرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة ذات أصول في كلام الهند، ومصدرها أقوال خاصة البراهمة في كتابهم الفيدا[٢]، الذى يشتمل على مجموعة من الأشعار، ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم، ويقول علماؤهم إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها لأن (براهما) صرفهم عن أن يأتوا بمثلها. [٣]

يقول أبو الريحان البيروني (ت ٤٣٠هـ) في كتابه:(ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) ما نصه: " إن خاصتهم يقولون إن في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون عن ذلك احتراما لها "[٤].

والظاهر أن هذه الفكرة قد وفدت للساحة الفكرية الإسلامية، عندما ترجمت الفلسفات الهندية في عهد أبي جعفر المنصور(ت١٥٨هـ) ومن جاء بعده من حكام بني العباس، فتلقف الذين يحبون كل وافد من الأفكار، ويركنون إلى الإغراب في أقوالهم، هذه الفكرة الغريبة الوافدة، ودفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا هذا القول

---

[١] يُنظر: القول بالصرفة في إعجاز القرآن للدكتور إبراهيم التركي ص(١٥٧).

[٢] الفيدا: كتاب يشمل أربعة كتب مقدسة للهندوس، وقد كتب باللغة السنسكريتية . يُنظر: مشكلة الألوهية لمحمد غلاب ص٩٧.

[٣] يُنظر: المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني للدكتور أحمد جمال العمري ص(٢٧).

[٤] نقلا عن : فكرة النظم في تطورها وأهدافها للدكتور عرفة بسيوني ص(٣٥) .

ويطبقوه على القرآن، وإن كان لا ينطبق، فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه، ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله[١].

كما يُلمِح الرافعي إلى أن الصرفة نتجت عن تأثر المعتزلة بكتب أهل الفلسفة اليونانية، حيث يُقدّم للحديث عن الصرفة بقوله: "لما نجمت آراء المعتزلة بعد أن أقبل جماعة من شياطينها على دراسة كتب الفلسفة مما وقع إليهم عن اليونان وغيرهم، نبغت لهم شؤون أخرى من الكلام، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظراً صرفاً، وبين الدين على كونه يقيناً محضاً، وتغلغلوا في ذلك حتى خالف بعضهم بعضاً بمقدار ما يختلفون في الذكاء وبُعد النظر، فتفرّقوا عشر فرق، واختلفت بهذا آراؤهم في وجه إعجاز القرآن" .[٢]

فظاهر كلام الرافعي أن بعض أفكار المعتزلة حول وجوه إعجاز القرآن، بما في ذلك فكرة الصرفة، هي نتاج نظر المعتزلة في كتب الفلسفة اليونانية وغيرها.

الثاني: أنها فكرة عربية خالصة، ويرى أصحاب هذا الرأي أنها ظهرت بفعل أوهامِ خاطئة حول وجه إعجاز القرآن اعتقدها القائلون بالصرفة من المعتزلة، ويشير الإمام عبدا القاهر الجرجاني إلى شيء من ذلك حيث يقول بأن: "الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة، أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهم أن التحدي كان إلى أن يُعبَّر عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أطلق لهم وخُيِّروا في المعاني كلها".[٣]

وهذا يعني أن القائلين بالصرفة قد تبادر إلى ظنهم أن التحدي كائن في لفظ القرآن ومعناه معاً، وبما أن القرآن قد تضمّن من المعاني ما يخرج عن قدرة البشر،كأخبار

---

[١] المعجزة الكبرى لمحمد أبي زهرة: ص ٦٩ .

[٢] إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي: ص(١٢١).

[٣] الرسالة الشافية للجرجاني ص(٦١١).

الأولين والآخرين، والإخبار بالغيب وما حواه من التشـريعات والتعـاليم والقـيم والمبادئ, فلا يستطيع الإنسان بواقع جبلته وطبيعة تركيبه وعقله المحدود أن يعبّر عنها بمثل بيان القرآن وبلاغته, ومن ثم فهو ممنوع من ذلك بحكم عقله وعلمه المحدود عـن الإتيان بمثل معاني القرآن وبمثل جمال ألفاظه، أي أنهم مصروفون عـن التعـبير بمثـل أسلوب القرآن لعدم تمكّنهم منه مع معانيه، وهذا القول يشير إلى أن الفكرة كانـت عربية النشأة، تولدت في بيئة المتكلمين من المعتزلة خاصة ومن غيرهم عامة، وذلك في أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين، فإن من المتكلمين من كان يقول: إن نظم القرآن، وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة للنبي ﷺ، ولا دلالة على صـدقه في دعواه النبوة, أو أن نظم القرآن وحسن تأليف آياته ليس معجزاً، فإن العباد قـادرون على مثله في النظم والتأليف. [١]

فقضية الإعجاز من المسائل التي توقف أمامها المعتزلة طويلاً، فهي عندهم مـن أبـرز المسائل وأهمها، كما أن مبدأ الصرفة من أهم اتجاهاتهم في محاولة الكشف عن إعجـاز القرآن, ولم يغب عن البيئة الاعتزالية, ولم يستطع شبحه أن يختفي عن أنظارهم في كثير من الأحيان.[٢]

إلا أنني لا أرجح أن الفكرة نابعة من أصل عقيدة المعتزلة, لأن عدم اتفـاقهم علـى مفهوم واحد لفكرة الصرفة، يدل على أنها لم تصدر عن عقيـدتهم في كـلام الله، وفي خلق القرآن، وتقديم العقل على النقل, كما أن فكرة الصرفة تتعارض مع الأصل الثاني من أصول المعتزلة وهو العدل, إذ كيف يكون من العدل التحدي مع سلب القـدرة عليه, كما أن المعتزلة ترى أن أفعال العباد لا تتعلق بمشيئة الله فالعبد خـالق لفعلـه, والصرفة فيها أن الله تعلقت مشيئته بأفعال العباد حيث صرفهم جبرا عن المعارضـة, فهذا يدل على أن الفكرة لم تنبع أصلا من عقيدة المعتزلة.

---

[١] يُنظر: القول بالصرفة في إعجاز القرآن للشهري ص(٢٨٣).

[٢] التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة للدكتور وليد قصاب ص (٣١٤).

والأظهر أن الفكرة مصدرها خارجي، ولكنها نشأت وترعرعت في بيئة الاعتزال, لا سيما أن النظام نفسه قد عرف عنه تأثره بكتب الفلاسفة، وعلم الكلام، وإطلاقه العنان للعقل بطريقة لم يجاره فيها أحد من المعتزلة .[١]

وقد ذهب البعض إلى أن فكرة الصرفة مدسوسة من أعداء الإسلام, وطعن في نسبتها إلى علماء المسلمين[٢].

يقول الزرقاني: " إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته, ثم يشتد عجبي وأسفي حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين [٣] الذين كنا نرجوهم للدفاع عن القرآن, ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن! على أنني أشك في نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء, ويبدو لي أن الطعن في نسبتها إليهم, والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم أقرب إلى العقول وأقوى في الدليل, لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية، وعلم هؤلاء من ناحية أخرى قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي الآثم إليهم، ولقد عودنا أعداء الإسلام أن يفتروا على رسول الله ﷺ وعلى أصحابه وعلى الأئمة والعلماء، فلم لا يكون هذا منه؟ "[٤].

ولكن هذا القول يوقع قائله فيما كان يرجو دفعه, إذ أن نسبة القول بالصرفة إلى بعض علماء المعتزلة والسنة والشيعة ثابتة, سطرتها كتب القائلين بها, حيث صرحوا بها علانية وبكل وضوح, وهي محفوظة في كتبهم, فكيف نطعن ونشكك في تزويرها؟ إن هذا يفتح باب التشكيك في كل ما نقل إلينا وسطره علماؤنا, وحينها يسهل على كل أحد أن يثبت ما يشاء وينفي ما يشاء, فلا يبقى لنا فيما حوته كتبنا قول تسلم نسبته لقائله, ولا كتاب تصح نسبته لصاحبه, فلا حجة في الأقوال ولو عن أصحابها صدرت, وإليهم نسبت, فهذه طريق محفوفة بالمخاطر ولا يسلم السالك فيها من الزلل.

---

[١] يُنظر: القول بالصرفة في إعجاز القرآن للشهري ص(٢٨٣).

[٢] يُنظر: نظرية الإعجاز القرآني لأحمد سيد عمار ص(٤٥).

[٣] هم: الاسفرايني, والنظام, والمرتضى. يُنظر: مناهل العرفان (٢/٢٩٢).

[٤] مناهل العرفان للزرقاني (٢/٢٩٧).

المطلب الثالث: بواعث القول بالصرفة:

إن بواعث القول بالصرفة تختلف باختلاف حال القائلين بها ومرادهم من قولهم, فنذكر من هذه البواعث والأسباب:

١. الدس في الدين والطعن في النبوة, من خلال الطعن في معجزة الرسول ﷺ الخالدة, وهذا في حق كل زنديق ضال, وقد علل البغدادي دوافع النظام للقول بالصرفة وإنكار معجزة القرآن الكريم في نظمه, أنه أراد التوصل بذلك إلى إنكار معجزة نبينا محمد ﷺ وإنكار نبوته[١].

٢. الاغترار والانبهار بكلام العرب في شعرهم ونثرهم واعتقاد موافقته لنظم القرآن حسب ظنهم وتذوقهم للكلام, مما دعاهم للقول بأن نظم كلام العرب يوازي نظم القرآن.

قال العلوي:" والذي غر هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة ما يرون من الكلمات الرشيقة والبلاغات الحسنة, والفصاحات المستحسنة الجامعة لكل الأساليب البلاغية في كلام العرب الموافقة لما في القرآن, فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ماذكرناه من تلك الأساليب البديعة لا يقصر عن معارضته, خلا ما عرض من منع الله إياهم"[٢].

٣. الالتباس الحاصل لبعض القائلين بالصرفة, إذ يثبت من خلال القول بالصرفة تدخل قدرة الله في صرف قدرات العرب وطاقاتهم عن الإتيان بمثله تأييدا لرسوله ودلالة على صدقه, فاختلطت الأمور وقال بها البعض بلا روية ولا تمحيص.

وهذا ما أشار إليه البيهقي في كتابه " الاعتقاد" تحت باب: إثبات نبوة محمد ﷺ.

---

[١] الفرق بين الفرق للبغدادي ص(١١٤).

[٢] الطراز للعلوي (٣/٣٩٢).

حيث قال:" ومنهم من قال: إعجازه في أن الله أعجز الناس عن الإتيان بمثله وصرف الهمم عن معارضته مع وقوع التحدي وتوفر الدواعي إليه لتكون آية للنبوة وعلامة لصدقه في دعواه"[1].

٤. عدم وضوح مفهوم الصرفة واختلاف إطلاقاته عند القائلين به, فليس للصرفة مصطلح واحد متفق عليه عند الجميع, ومن هنا اختلفت مقاصد القائلين بالصرفة حسب مفهومها لديهم, فليس كل من قال بالصرفة ينفي كون القرآن معجز بذاته, وليس كل من قال بها يزعم قدرة العرب على معارضة القرآن, بل أن البعض يقول بها على أنها انصراف ذاتي عن معارضة القرآن وتسليم بإعجازه, وعلى ذلك كانت أقوالهم بالصرفة متوقفة على فهم مقصودهم بها.

٥. إن ارتباط نشأة القول بالصرفة بالمعتزلة يجعلنا نبحث في الأسباب العقدية التي توافق معها هذا القول عندهم, فإن من أبرز سمات منهج المعتزلة تقديمهم للعقل على النقل, وقولهم بالتحسين والتقبيح العقلي, فالعقل عندهم لا يحيل قدرة العرب على الإتيان بمثل القرآن في فصاحة مفرداته وبلاغة تراكيبه, وبالتالي فإن المانع هو صرف الله للعرب عن معارضة القرآن.

فقول النظام بالصرفة يرجع إلى قاعدة الحسن والقبح العقليين عند المعتزلة، وملخصها: أن كل ما رآه العقل حسنا، فهو عند الله حسن ومطلوب الفعل، وكل ما رآه العقل قبيحا فهو عند الله قبيح ومطلوب الترك, ومن وجهة نظر النظام العقل لا يحيل على العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة والبيان، أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله صرف هممهم, فجعل النظام ما رآه العقل حكما في هذه المسألة وهو الفصل فيها[2].

---

[1] الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي ص(٢٥٩).

[2] الإعجاز البياني للقرآن للدكتور حسين مطاوع الترتوري, مجلة البحوث الإسلامية, العدد(٢٣), ص(٣٩١).

كما أن مذهب المعتزلة قائم على ردود الأفعال , ويظهر هذا في أصولهم الخمسة التي بنوا عليها مذهبهم, وهي: التوحيد, والعدل, والوعد والوعيد, والمنزلة بين المنزلتين, والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.[١]

فالأصل الأول وهو التوحيد عند المعتزلة له مفهوم خاص يدفعهم للتنزيه المطلق لله سبحانه حتى بلغوا في التنزيه مبلغا مخالفا للحق, فلم يثبتوا لله شيئا من الصفات التي أثبتها الله لنفسه في القرآن أو أثبتها له رسوله ﷺ فرارا من التشبيه على حد زعمهم[٢] , وهذا اضطرهم إلى القول بخلق القرآن, وإنكار أن يكون الله قد تكلم بالقرآن حقيقة, وينزهونه عن الألفاظ والحروف, ولذلك ذهب النظام إلى أن القرآن يستحيل أن يكون في مكانين في حالة واحدة, فالذي نقرؤه هو حكاية عن المكتوب الأول في اللوح المحفوظ.[٣]

ومعنى قول المعتزلة هذا أن القرآن يتغير بانتقاله من اللوح المحفوظ إلى الرسول ﷺ, ويلزم منه فقدان صفة الإعجاز في الألفاظ والأسلوب لأنها حكاية لتلك المعاني, وهم بهذا يعتبرون بلاغة القرآن وفصاحته غير معجزة لكونها غير صادرة من الله بخلاف المعاني التي وقع بها الإعجاز وهذا هو معنى القول بالصرفة التي ذهب إليها النظام خاصة.

قال ابن كثير:" وأما من زعم من المتكلمين: أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عن معارضته مع إنكار ذلك، أو هو سلب قدرتهم على ذلك، فقول باطل وهو مفرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق، خلقه الله في بعض الأجرام، ولا فرق عندهم بين مخلوق ومخلوق، وقولهم: هذا كفر وباطل وليس مطابقا لما في نفس الأمر، بل القرآن كلام الله غير مخلوق، تكلم به كما شاء تعالى وتقدس وتنزه عما يقولون علوا

---

[١] يُنظر: كتاب شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار الهمذاني لتفصيل الكلام حول هذه الأصول الخمسة.

[٢] يُنظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة لعواد المعتق ص(٨١).

[٣] يُنظر: الملل والنحل للشهرستاني ص(٥٥).

كبيرا، فالخلق كلهم عاجزون حقيقة وفي نفس الأمر عن الإتيان بمثله ولو تعاضدوا وتناصروا على ذلك".[١]

٦. بعض الباحثين يرى أن القول بالصرفة ظهر في معرض الرد على الطاعنين في الإسلام مع كثرة المذاهب والملل والنحل التي راجت في ذلك العصر, وكثرة الجدل مع المخالفين, ورد شبهات ومطاعن الطاعنين في الإسلام, فربما قاد ذلك إلى القول بها في حومة المجادلة, دون تأمل في الأقوال ولوازمها, وقد عرف عن النظام كثرة مجادلته لمختلف الفرق والرد على شبهاتهم, فكان أكثر أقواله وأفكاره ردا لشبهات خصومه, فتركت هذه المجادلات والصراعات الفكرية أثرها على النظام ودفعته للقول بالصرفة طلبا لكسر الخصوم وردا على الطعون والشبهات حول إعجاز القرآن[٢].

قال الدكتور أحمد أبو زيد:" فإيراد قضية إعجاز القرآن في سياق هذا البحث المتعلق بالصرفة، وفي معرض الرد على الدهريين، يفيد بأن هذه النظرية إنما وضعت للدفاع عن القرآن، وتتريهه عن مطاعن الملحدين".[٣]

فهو يرى بأن المعتزلة وضعت هذه النظرية للدفاع عن القرآن، ولكن يعكر هذا الرأي أن رواج نظرية الصرفة، يستلزم أن القرآن الكريم ليس معجزا بذاته, أوفي درجة من الفصاحة والبلاغة تمنع محاكاته، وتعجز القدرة البشرية عن أن تأتي بمثله, فكيف تكون الصرفة دفاعا عن القرآن!

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير (٥٤٧/٨).

[٢] يُنظر: القول بالصرفة في إعجاز القرآن للشهري ص(٢٩٥).

[٣] المنحى الاعتزالي في بيان إعجاز القرآن للدكتور أحمد أبو زيد ص(٢٥٧).

المبحث الثاني: القائلون بالصرفة

المطلب الأول: قول النظام بالصرفة.

المطلب الثاني: قول الجاحظ بالصرفة.

المطلب الثالث: قول الرماني بالصرفة.

المطلب الرابع: قول الشريف المرتضى بالصرفة.

المطلب الخامس: قول ابن سنان الخفاجي بالصرفة.

المبحث الثاني: القائلون بالصرفة

بالرغم من الاتفاق على المفهوم العام للصرفة, إلا أن ثمة اختلافات لدى القائلين بها حول تفصيلات تتعلق بكيفية الصرف, ومدى اجتماع هذا القول بالصرفة مع القول بإعجاز القرآن البلاغي, فقد ذهب بعض الباحثين إلى تقسيم القائلين بالصرفة إلى فريقين باعتبار الموقف من الإعجاز البلاغي للقرآن:

١- فريق يقول بصرفة تنكر الإعجاز البلاغي للقرآن، ويميلون إلى أن الإعجاز في الإخبار بالغيب.

٢- فريق يقول بصرفة تجمع بين الإعجاز البلاغي والعجز العارض الذي هو الصرفة .(١)

كما يمكن تقسيم القائلين بالصرفة باعتبار كيفية الصرف إلى فريقين:

١- فريق يقول: أن الله صرف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة، فكلما هموا بها، وجدوا في أنفسهم صارفا ودافعا يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة، ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم عن الانصداع لهذا الأمر، بل إن المقتضي فيهم كان تاما، غير أن الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الالتفات لهذا الأمر، ولولا ذلك لأتوا بمثله.

٢- وفريق آخر يقول: أن الله سلبهم العلوم التي كانت العرب مالكة لها ومتجهزة بها، وكانت كافية للإتيان بما يماثل القرآن، ولولا هذا السلب لأتوا بمثله.(٢)

وفيما يلي عرض لأشهر القائلين بالصرفة وبيان لمفهومها لديهم:

المطلب الأول: قول النظام (ت٢٣١هـ) بالصرفة:

التعريف به: هو إبراهيم بن سيار النظام، مولى آل الحارث من عباد الضبعي البصري المتكلم، شيخ المعتزلة وهو صاحب التصانيف، وهو شيخ الجاحظ وقرينه, لقب بالنظام لأن نظم الخرز كان حرفة له في سوق البصرة, أخذ الاعتزال عن خاله أبي الهذيل

---

(١) يُنظر: نظريات الإعجاز القرآني للدكتور جمال الدين عبد العزيز ص٧٧ .

(٢) يُنظر: الطراز للعلوي (٢٩١/٣), البيان في اعجاز القرآن للخالدي ص ٨٢

العلاف، أحد أئمة المعتزلة ثم مالبث أن استقل عنه، وصار صاحب مذهب منفرد, لـــه كتاب الطفرة وكتاب الجواهر والأعراض وغيرها، وهو من الطبقة السادسة, توفي سنة ٢٣١هـــ وقيل غير ذلك.[١]

يعتبر النظام أول جاهر بالقول بالصرفة وأعلنها، فلم يعرف تاريخ الإسلام من جاهر بها قبله، حتى أصبحت الصرفة مذهبا للنظام, وقد نسبها له كثير مـــن علمـــاء المعتزلـــة وغيرهم.

يقول عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٩هـــ) عن النظام: " دون مذاهب الثنوية، وبدع الفلاسفة، وشبه الملحدة في دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفاً من السيف، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه، وأنكر ما روي عن معجزات نبينا ﷺ من انشقاق القمر، وتسبيح الحصى في يده، ونبوع الماء من بين أصابعه ليتوصل بإنكار معجزات نبينا ﷺ إلى إنكار نبوته "[٢].

ثم عدد البغدادي مثالب النظام، فذكر منها إحدى وعشرين فضـــيحة، وقـــال عنـــد الفضيحة الخامسة عشرة: " الفضيحة الخامسة عشرة: قوله: إن نظم القرآن، وحسن تأليف كلماته ليس بمعجزة النبي عليه الصلاة والسلام, ولا دلالة على صدقه في دعواه النبوة وإنما وجه الدلالة منه على صدقه مافيه من الاخبار عن الغيوب, فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم، والتأليف ".[٣]

ثم إن الشهرستاني (ت٥٤٨هـــ) ذكر ثلاث عشرة مسألة انفرد بهـــا النظـــام عـــن أصحابه من المعتزلة، وذكر في التاسعة قوله بالصرفة, فبين رأيه في إعجاز القـــرآن وأن وجه الإعجاز فيه هو: " من حيث الإخبار عن الأمور الماضية والآتية، ومن جهة صرف

---

[١] يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ٥٤١/١٠ ، طبقات المعتزلة ص ٢٦٤ .

[٢] الفرق بين الفرق ص(١٣١).

[٣] المرجع السابق ص(١٤٣).

الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب عن الاهتمام به جبراً وتعجيزاً، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله بلاغة وفصاحة ونظماً"[١]. فالشهرستاني بهذا ينص على نسبة القول بالصرفة للنظام صراحة.

وقد كفّر كثيرٌ من علماء المسلمين النظامَ بسوء معتقده، وأكثر المعتزلة متفقون على تكفير النظام, كشيخه وخاله أبي الهذيل العلاف، والجبائي, والإسكافي, بل إن علماء المسلمين ألفوا في تكفيره كتباً متعددة.[٢]

وممن نسب الصرفة صراحة له من غير المعتزلة أبو الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ) حيث قال: " وقال النظام: الآية والأعجوبة في القرآن ما فيه من الأخبار عن الغيوب، فأما تأليفه والنظم، فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم "[٣].

وهذا يعني أن أبا الحسن الأشعري قد تنبه إلى أن وجه إعجاز القرآن عند النظام يشمل أمرين: صرف العرب عن معارضته، وما فيه من الإخبار عن الغيب، وليس الصرفة فحسب.

خلاصة المفهوم النظامي للصرفة: أنه ينفي عن القرآن الإعجاز، ويجعله في مستوى الكلام البليغ الذي استحسنته العرب، وحظي عندها، ولا فضل للقرآن في ذلك على غيره، وكان باستطاعة العرب الإتيان بمثله، لولا أنهم صرفوا عند ذلك مقهورين بقوة خارجة عنهم، لا طاقة لهم على دفعها.

---

[١] الملل والنحل (٥٦/١).

[٢] يُنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٥٤٢/١٠).

[٣] مقالات الإسلاميين (٢٩٦/١).

المطلب الثاني: قول الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) بالصرفة:

التعريف به: هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي، اشتهر بالجاحظ, من كبار الأدباء, أخذ عن العلاف، وتصانيفه مشهورة كالبيان والتبيين والحيوان، وهو من الطبقة السابعة، توفي سنة ٢٥٥هـ.[١]

إن المطلع على كتب الجاحظ يرى أنه يقول بالصرفة صراحة في أكثر من موضع بل إنه يتوسع بلفظ هذا المصطلح ويطلقه على أكثر من موقف أو حالة لأمور حصلت مع الأمم السابقة منها عند الكلام عن سليمان والهدهد، وعند الكلام عن تيه بني إسرائيل، حيث قال: (فإنا نقول بالصرفة في عامة هذه الأصول، وفي هذه الأبواب، كنحو ما ألقى على قلوب بني إسرائيل وهم يجولون في التيه... مع قرب ما بين طرفي التيه، وقد كان طريقاً مسلوكاً، وإنما سموه التيه حين تاهوا فيه لأن الله تعالى حيث أراد أن يمتحنهم ويبتليهم صرف أوهامهم، ومثل ذلك صنيعه في أوهام الأمة التي كان سليمان ملكها ونبيها...).[٢]

وقال في موضع آخر: (... ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه، ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه, ولو تكلف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعظمت القضية على الأعراب، وأشباه الأعراب، والنساء، وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال".[٣]

من خلال هذه النصوص يتبين أن الجاحظ يقول بالصرفة صراحة, وفي المقابل يرى الجاحظ أن القرآن معجز بنظمه ومما يؤيد ذلك:

---

(١) يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء ٥٢٦/١١، طبقات المعتزلة ٢٧٥.

(٢) الحيوان للجاحظ (٢٦٨/٦).

(٣) الحيوان (٨٩/٤).

قوله في كتابه الحيوان: " وفي كتابنا المترل الذي يدلنا على صدق نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد ".[١]

وقال في كتابه حجج النبوة: " لأن رجلاً من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها".[٢]

وقال أيضاً في حجج النبوة: " وجاء محمد ﷺ بهذا الكتاب الذي نقرؤه فوجب العمل بما فيه، وأنه تحدى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه في المواضع الكثيرة والمحافل العظيمة فلم يرم ذلك أحد ولا تكلفه، ولا أتى ببعضه ولا شبيه منه ".[٣]

لقد استوقف قول الجاحظ في إعجاز القرآن العديد من الباحثين لأنه جمع بين إعجاز القرآن بنظمه وإعجازه بالصرفة، وهما عقلا لا يجتمعان, فكيف بالجاحظ وهو إمام من أئمة البلاغة يجمع بينهما؟

فقال نعيم الحمصي: " وذكر للجاحظ قولان في الإعجاز: القول بالصرفة والقول بإعجاز الأسلوب، فهل قال بالأول حين كان لا يزال متأثراً بآراء أستاذه النظام وبالثاني حين استقل بنفسه أو أنه جمع بين الرأيين معاً؟ لا ندري! فإنه يذكر الرأيين في كتابه الحيوان متتاليين تقريباً ".[٤]

ثم استبعد الحمصي أن يكون الجاحظ قد قال بالرأيين معاً في وقت واحد لما يُعرف عنه من قوة التفكير ووضوح الحجة فإن الرأيين متناقضان.[٥]

ويقول الرافعي:" أما الجاحظ فإن رأيه في الإعجاز كرأي أهل العربية,وهو أن القرآن في الدرجة العليا من البلاغة التي لم يعهد مثلها... غير أن الرجل كثير الاضطراب, فإن

---

[١] الحيوان (٤/٩٠).

[٢] رسائل الجاحظ (في حجج النبوة) (٣/١٧٦).

[٣] المرجع السابق (٣/١٩١).

[٤] فكرة إعجاز القرآن لنعيم الحمصي ص(٥٦).

[٥] المرجع السابق.

هؤلاء المتكلمين كأنما كانوا من عصرهم في منخل... ولذلك لم يسلم هو أيضا من القول بالصرفة وأن كان قد أخفاها وأومأ إليها عن عرض".[١]

ولتوضيح موقف الجاحظ من إعجاز القرآن والصرفة لابد من معرفة الآتي:

- لقد صرح الجاحظ بالصرفة صراحة وبكل وضوح وهي تختلف تماماً عن الصرفة عند النظام، فالمعجز عند الأخير لا يكمن في ذات القرآن بل هو أمر خارج عنه فلا ميزة للقرآن عن غيره من كلام العرب، ولو خلى بينهم وبين معارضته لجاءوا بمثله وبما هو أحسن منه, أما الجاحظ فإنه يرى أن القرآن بليغ معجز في نظمه، وهو بذاته ينقض الصرفة التي نادى بها النظام، وينكر على أستاذه القول بالصرفة حيث قال في كتابه (في خلق القرآن): (فكتبت لك كتاباً أجهدت فيه نفسي، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على كل طعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام ممن يزعم أن القرآن خلق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان، ولا دلالة ".[٢]

- قال الجاحظ بالصرفة بعد أن أثبت إعجاز القرآن في نظمه وبلاغته، وهو ينظر للصرفة على أنها لطف من الله بعباده حيث أزال بالصرفة الشكوك والأوهام والحيرة والتردد الذي قد ينشأ في ذهن من لا دراية له بالفصيح والأفصح من الكلام، وذلك حتى لا يأتي أحدهم بشيء يعارض فيه القرآن فيلتبس هذا على خفاف العقول ومن ليس له علم بلغة العرب فيثير في نفوسهم الشبهة والقلق من جهة إعجاز بلاغة القرآن، كما أنه قد يكون مستمسكاً لأهل الشغب فيطلبون المحاكمة بين القرآن وما عورض به ويكثر القيل والقال، ولذلك قطع الله عليهم هذا الطريق وصرفهم عن الإتيان بما يداني القرآن على أنه لو خلاهم لكانوا عاجزين عن الإتيان بمثله.

وهذا يظهر جلياً بيناً في قول الجاحظ حيث قال بعد كلامه عن الصرفة: " ولذلك لم نجد أحداً طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك فجاء بأمر فيه أدنى

---

[١] إعجاز القرآن للرافعي ص(١٠٢).

[٢] رسائل الجاحظ (في خلق القرآن) (٢١٩/٣).

شبهة لعظمت القضية على الأعراب وأشباه الأعراب، والنساء وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملاً، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب ولكثر القيل والقال".[(١)]

وقال في موضع آخر: " وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطرباً ولا ملفقاً ولا مستكرهاً، إذا كان في ذلك لأهل الشغب متعلق".[(٢)]

وإن كان يعكر ما ذهب إليه الجاحظ، أن مسيلمة وأمثاله حاولوا معارضة القرآن, ولكنهم لما نظروا في القرآن علموا أنه لا طائل من معارضته وأنه لا قبل لهم بالإتيان بمثله فتحولوا عن المعارضة إلى السخرية والاستهزاء, ولذلك لا نجد في هذه المحاولات الجدية في المعارضة.

خلاصة مفهوم الصرفة عند الجاحظ لا يقدح في بلاغة القرآن، ولا ينكر تفوقه، بل هو يقر بهذا الإعجاز، فالصرفة عند الجاحظ ضرب من التدبير الإلهي، والعناية الربانية، جاءت لمصلحة المسلمين, حتى يحفظ القرآن من عبث العابثين، وتشكيك المشككين، الذين يمكنهم أن يخدعوا الناس، ويزوروا أمامهم الحقائق، وقد صرف الله نفوس القوم عن معارضة القرآن، لا لأنهم قادرون على مثله والله منعهم من ذلك كما قال النظام، ولكن لئلا يكون لأهل الشغب وضعاف الإيمان متعلق للطعن والتشكيك.

وقد مال الدكتور صلاح الدين رسلان لهذا المفهوم من الصرفة, حيث قال: "والصرفة ليست إقلالاً من شأن القرآن بل هي لطف ورحمة من الله بالعباد أن يطمع في القرآن طامع ينطق في نفسه القدرة على الإتيان بمثله أو معارضته فيتأثر به عامة الناس وتتبلبل الأفكار".[(٣)]

---

(١) الحيوان (٨٩/٤).

(٢) المرجع السابق (٢٦٩/٦).

(٣) القرآن الكريم رؤية منهجية جديدة لمباحث علوم القرآن لصلاح الدين رسلان ص(٢٣٤).

المطلب الثالث: قول الرماني (ت ٣٨٤ هـ) بالصرفة:

التعريف به: هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني النحوي المعتزلي, صاحب التصانيف الكثيرة، ألف في النحو واللغة والأدب والاعتزال والتفسير وغيرها, أصحاب الإخشيد المعتزلي، من الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة, تُوفي سنة ٣٨٤هـ.[1]

أشار الرماني في كتابه (النكت في إعجاز القرآن) إلى وجوه إعجاز القرآن وهي تظهر في سبع جهات فقال:" ووجوه إعجاز القرآن تظهر في سبع جهات ترك المعارضة مع توفر الدواعي، وشدة الحاجة، والتحدي للكافة، والصرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، ونقص العادة، وقياسه بكل معجزة".[2]

ثم شرع في بيان هذه الأوجه, فذكر أن القرآن في أعلى مراتب البيان، ولا يدانيه شيء من كلام فصحاء العرب، وبلاغييهم، فهو مقتنع بإعجاز البلاغة القرآنية، التي لولاها لجاءوا بمثله.

وأما عن مفهوم الصرفة عنده فيقول الرماني: " وأما الصرفة: فهي صرف الهمم عن المعارضة وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول".[3]

ويتضح من خلال وجوه الإعجاز التي ذكرها الرماني أنه يقر ببلاغة القرآن غير أنه يمزج معها الصرفة، ولذا فإن مفهوم الصرفة عنده كمفهومها عند الجاحط، أي أن القرآن معجز ببلاغته، ولكن الله صرف همم العرب عن معارضته حتى لا يلتبس على

---

[1] يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٥٣٣/١٦), شذرات الذهب لابن العماد (١٠٩/٣), طبقات المعتزلة ص(٣٣٣).

[2] النكت في إعجاز القرآن للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص(٧٥).

[3] المرجع السابق ص(١١٠).

ضعاف النفوس والعقول، فهو يخالف قول النظام الذي يزعم أن الله لـــو لم يصـــرف العرب لجاءوا بمثل القرآن.[١]

ولعل جمع الرماني بين وجهي البلاغة والصرفة الذين ينفي الواحد منهما الآخر؛ ألبس الأمر على البعض[٢], والحقيقة أن الرماني كان متيقظاً لطبيعة الفرق بين إعجاز البلاغة والقول بالصرفة ولكنه جمع بينهما على طريقة الجاحظ.

المطلب الرابع: قول الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) بالصرفة:

التعريف به: هو أبو القاسم المرتضى علي بن الحسين بن موسي بـــن محمـــد العلـــوي الحسيني الموسوي, الشيعي من الشيعة الإمامية, ولد سنة ٣٥٥ هــ, من علماء الأدب واللغة والكلام, له عدد من التصانيف منها كتاب الذخيرة في علم الكلام وله كتـــاب الصرفة المسمى الموضح عن جهة إعجاز القرآن, وتوفي سنة ٤٣٦هــ.[٣]

إذا كان النظام هو الذي اشتهر عنه القول بالصرفة ابتداءً , فإن الشريف المرتضى أبرز من استوفى الكلام عنها وتحدث عن الخطوط العريضة لهذا المذهب في كتابه:(الذخيرة في علم الكلام) في فصل (جهة دلالة القرآن على النبوة),ثم صنف مصنفا مســـتقلا في الصرفة استوفى فيه الكلام عن الصرفة مفصلا, وقد سماه (الموضح في جهـــة إعجـــاز القرآن) وسماه بعضهم (كتاب الصرفة), وفيه ما يغني في توضيح مذهب الصرفة عنـــد المرتضى ومن وافقه.[٤]

وعَّرف الشريفُ المرتضى الصَّرفةَ: بأنها سلبُ الله تعالى كُلَّ مَن رامَ المعارضةَ، وفَكَّرَ في تكلفها في الحالِ العُلومَ التي يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم[٥].

---

[١] يُنظر: الصرفة دلالاتها لدى القائلين بها لسامي عطا ص(١٥).

[٢] يُنظر: فكرة إعجاز القرآن للحمصي ص(٦٣).

[٣] يُنظر ترجمته: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣١٣، إنباه الرواة للقفطي ٢/٢٤٩.

[٤] يُنظر: الصرفة في إعجاز القرآن للشهري ص(٣٠٥).

[٥] ينظر : الموضح عن جهة إعجاز القرآن لابن المرتضى ص(٣٥).

وقال في (الذخيرة في علم الكلام):" فإن قيل بينوا كيفية مذهبكم في الصرفة, قلنا : الذي نذهب إليه أن الله تعالى صرف العرب عن أن يأتوا من الكلام بما يساوي أو يضاهي القرآن في فصاحته وطرقة نظمه, بأن سلب كل من رام المعارضة العلوم التي يتأتى ذلك بها"[(١)].

وكيفية الصرف هي بأن لا يجدوا العلوم بالفصاحة والبلاغة في تلك الحال, فيتعذر ماكان مع حصول العلم متأتيا, وإذا لم يقصد المعارضة وجرى على شاكلته في نظم الشعر, ورصف الخطب, والتصريف في ضروب الكلام خلي بينه وبين علومه.[(٢)]

وهو مع ذلك يقر بأن القرآن اختص بطريقة في النظم مفارقة لسائر نظوم الكلام, ولكن لا يكفي النظم وحده في التحدي به, بل لابد من أن يقع التحدي بالنظم والفصاحة معا.[(٣)]

يقول المرتضى:" بل إن القرآن هو المعجز من حيث كان وجود مثله في فصاحته وطريقة نظمه متعذرا على الخلق, من دون اعتبار سبب التعذر؛ لأن السبب يعود عندنا إلى الصرف, فالتعذر حاصل على كل حال".[(٤)]

وعن ماهية هذه العلوم التي سلبها الله من العرب, يقول الرافعي أنها ما حملته ألفاظ القرآن من المعاني, إذ لم يكونوا أهل علم[(٥)], فكلامه يدل على أن العلوم لم تكن موجودة فيهم أصلا, وهذا التعليل فيه نظر, وممن استدرك على الرافعي كلامه نعيم الحمصي قال:" ونلاحظ أن بسط الرافعي رأي المرتضى خطأ, لأن معنى سلبهم العلوم أنها كانت موجودة فيهم فتكون الصرفة بسلبهم العلوم, والرافعي فسره بأنهم لم يكونوا

---

(١) الذخيرة في علم الكلام لابن المرتضى ص(٣٨٠). نقلا من : الموضح عن جهة إعجاز القرآن ص (٣٥) الحاشية رقم (٢).

(٢) الموضح عن جهة إعجاز القرآن ص(٥٣).

(٣) المرجع السابق ص(٤٢).

(٤) المرجع السابق ص(١٨٤).

(٥) يُنظر: إعجاز القرآن للرافعي ص(١٠١).

بطبيعتهم عارفين بهذه العلوم فإذن لم يسلبهم الله شيئا, فأين الصرفة إذن؟ ويظهـــر أن سبب هذا الخطأ أن الرافعي فهم من معنى العلوم غير ما يقصده منها المرتضى من أنهـــا العلوم المساعدة على نظم الكلام".[١]

وخلاصة مذهب المرتضى: أن العرب أوتوا القدرة على معارضة القـــرآن، والإتيـــان بمثله، بما كانوا عليه من بيان، وبلاغة، وفصاحة، ولكنهم عجزوا عن الإتيـــان بمثلـــه، لأنهم سلبوا هذه العلوم التي يستطيعون بها معارضة القرآن بعد أن كانت متأصلة فيهم, وأن إعجاز القرآن عنده يعود لفصاحته أي معانيه التي جاءت بهذا الـــنظم, لا مجـــرد نظمه, فالنظم تابع لها.

المطلب الخامس: قول ابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) بالصرفة:

التعريف به: هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي الأديب الشاعر الأندلسي الشيعي, من الشيعة الإمامية, ولد سنة ٤٢٢هـــ, أخذ الأدب عـــن أبي العلاء المعري وغيره, له عدة مصنفات أشـــهرها ســـر الفصـــاحة, تـــوفي ســـنة ٤٦٦هـــ.[٢]

وقد صرح ابن سنان وجاهر بأن القرآن الكريم غير معجز ببلاغته ونظمه, فقد ذكـــر ياقوت الحموي في معجم الأدباء أن ابن سنان الخفاجي ألف كتابا في الصرفة زعم فيه أن القرآن الكريم لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبي ﷺ، وأن كلّ فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله إلا أنهم صرفوا عن ذلك.[٣]

ويقرر ابن سنان أن القرآن الكريم ليس من المتلائم في الطبقة العليا من الكلام، وغيره في الوسطى بل لا فرق عنده بين القرآن وبين فصيح الكلام المختار يقول:" لا فرق بين

---

[١] فكرة إعجاز القرآن للحمصي ص(٧٠).

[٢] يُنظر ترجمته: الأعلام للزركلي (١٢٢/٤), معجم المؤلفين (١٢٠/٦).

[٣] يُنظر: معجم الأدباء للحموي (١٤٠/٣).

القرآن وبين فصيح الكلام المختار في هذه القضية ومتى رجع الإنسان إلى نفسه وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار وجد في كلام العرب ما يضاهي القرآن في تأليفه".[١]

وهذا دالٌّ عنده على أنّ من يقول بعلو تأليف القرآن وبلاغته على بلاغة العرب إنما هو مجرد من أدنى معرفة بالأدب ونقده , وهذه دعوى عريضة ليست بالمردودة فحسب بل هي منقوضة بشهادة الحال والواقع, فإذا كان عند العرب ما يضاهي القرآن فلماذا لم يأتوا به إلى النبي ﷺ حينما تحداهم بالقرآن, ثم كيف يطوي ابن سنان أعلام العلماء في أربعة قرون مضت لقوا ربهم على أنّ بلاغة القرآن الكريم وتأليفه هو وجه إعجازه الأعظم؟ أكلّ أولئك ليس لهم من الأدب ونقده أدنى نصيب؟ ثم هلا عرض لنا نماذج من كلام العرب الذي يضاهي القرآن! [٢]

ثم يفصح ابن سنان عن مفهوم الصرفة عنده فيقول: " وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التي بها كانوا يتمكنون من المعارضة وقت مرامهم ذلك ".[٣]

فخلاصة مفهوم الصرفة عنده إنما هي بسلب العلوم التي كانوا بها يتمكنون من المعارضة، وأن هذه العلوم كانت قائمة فيهم قبل نزول القرآن الكريم, بل هي قائمة فيهم يستخدمونها في نظم أشعارهم ونسج نثرهم , حتى إذا ما نزعت نفوسهم إلى المعارضة سلبت هذه العلوم منهم، فلا يجدون منها شيئًا, وهذا موافق لرأي الشريف المرتضى.

---

[١] سر الفصاحة للخفاجي ص(٨٩).

[٢] يُنظر: تثوير القول بالصرفة للدكتور محمود توفيق ص(٧٣).

[٣] سر الفصاحة ص(٨٩).

المبحث الثالث: مناقشة نسبة الصرفة لبعض العلماء

المطلب الأول: نسبة الصرفة لابن حزم .

المطلب الثاني: نسبة الصرفة للراغب الأصفهاني .

المطلب الثالث: نسبة الصرفة للرازي .

المطلب الرابع: نسبة الصرفة للقرطبي .

المطلب الخامس: نسبة الصرفة لابن تيمية .

المطلب السادس: نسبة الصرفة لابن كثير .

المطلب السابع: نسبة الصرفة للسيوطي .

المبحث الثالث: مناقشة نسبة الصرفة لبعض العلماء

لقد تساهل بعض الباحثين في نسبة القول بالصرفة إلى عدد من العلماء لشبهة عرضت لهم من غير تحقيق ولا تمحيص, إما لكون أقوالهم توهم بذلك, فحملوا أقوالهم ما لا تحتمل, أو كان بسبب اجتزاء النصوص, والنظر في أطراف الكلام, ثم بناء الآراء وإصدار الأحكام من غير نظر في سياق الكلام, أو تمعن لمراد صاحبه, فكان نتيجة ذلك اتهام جملة من العلماء بالصرفة نذكر منهم:

المطلب الأول: نسبة الصرفة لابن حزم (ت٤٥٦هـ) :

التعريف به: هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي, ولد سنة ٣٨٤هـ, له كتب نفيسة, كان ينهض بعلوم جمة , ويحسن النظم والنثر, حافظا للحديث وفقهه, من علماء أهل السنة, توفي سنة ٤٥٦هـ. [١]

أولا: ذكر من نسب إليه القول بالصرفة:

نسب الصرفة لابن حزم الدكتور سامي عطا[٢], وكذلك الدكتور الخالدي[٣], والدكتور صلاح رسلان[٤], والدكتور عبد الرحمن الشهري وصف كلام ابن حزم فيها بأنه مضطرب[٥].

ومال إلى ما ذهب إليه الدكتور محمد أبو موسى من أن ابن حزم لم يحكم القول في هذه المسألة. [٦]

واستدلوا على ذلك بكلام ابن حزم في الفصل إن الله تعالى منع الخلق عن مثله، وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق، يقول: " فإن قالوا: فقولوا أنتم هل القرآن

---

(١) يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٨/١٨٤).

(٢) يُنظر: الصرفة ودلالاتها لدى القائلين بها ص(٢٣).

(٣) يُنظر: الصرفة ص(٣٢١).

(٤) يُنظر: القرآن رؤية منهجية جديدة لمباحث علوم القرآن ص(٢٣٢).

(٥) يُنظر: القول بالصرفة في إعجاز القرآن ص(٢٩٦).

(٦) يُنظر: الإعجاز البلاغي ص(٣٧٤).

موصوف بأنه في أعلى درج البلاغة أم لا؟ قلنا وبالله التوفيق: إن كنتم تريدون أن الله قد بلغ به ما أراد فنعم، هو في هذا المعنى في الغاية التي لا شيء أبلغ منها، وإن كنتم تريدون هل هو في أعلى درج البلاغة في كلام المخلوقين؟ فلا؛ لأنه ليس من نوع كلام المخلوقين، لا من أعلاه، ولا من أدناه، ولا من أوسطه، وبرهان هذا أن إنسانا لو أدخل في رسالة، أو خطبة، أو تأليف، أو موعظة، حروف الهجاء المقطعة لكان خارجا عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك، فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلا، وأن الله تعالى منع الخلق عن مثله، وكساه الإعجاز وسلبه جميع كلام الخلق ".[1]

وقد علق الرافعي بشيء من السخرية على رأي ابن حزم وقال:" ولم نر أحدا فسر هذه الكلمة كابن حزم الظاهري! ".[2]

ثانيا: المناقشة:

لقد جمع ابن حزم في الإعجاز بين النظم والإخبار بالغيب, فقرر أن وجه إعجاز القرآن الكريم يكمن في أمرين هما: نظمه، وما فيه من الإخبار بالغيب، ثم يعقب على ذلك بقوله أن هذا هو الحق الذي ما خالفه فهو ضلال.

يقول: " ما المعجز منه أنظمه أم ما في نصه من الإنذار بالغيوب؟ فقال بعض أهل الكلام: أن نظمه ليس معجزا, وإنما إعجازه ما فيه من الأخبار بالغيوب, وقال سائر أهل الإسلام: بل كلا الأمرين معجز: نظمه, وما فيه من الأخبار بالغيوب, وهذا هو الحق الذي ما خالفه فهو ضلال".[3]

فهو لم يخالف جمهور علماء الإسلام في القول بالإعجاز البياني والغيبي.

أما الرد على النص الذي استدل به من نسب الصرفة إليه فهو رد من ابن حزم على من يقولون أن القرآن معجز؛ لأنه في أعلى درجات البلاغة, فإنما يقصد كما هو ظاهر

---

[1] الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٨/٣).

[2] يُنظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص(١٠٢).

[3] الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٦/٣).

من كلامه أن القرآن ليس من جنس كلام البشر فلا يجوز قياسه على كلام البشر بحال من الأحوال, وهذا لا يعقل أن يخالف فيه مسلم, لأنهم إن كان قصدهم أعلى درجات البلاغة لديهم فقولهم باطل سلفا للفرق البين بين كلام الله وكلام خلقه, فابن حــزم لم ينفِ البلاغة عن القرآن.

قال ابن حزم:"ولكن الإعجاز في ذلك إنما هو أن الله عز و جل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله, ورفع عنهم القوة في ذلك جملة, وهذا مثل لو قال قائل إني أمشي اليوم في هذه الطريق, ثم لا يمكن أحد بعدي أن يمشي فيها وهو ليس بأقوى من سائر النــاس, وأما لو كان العجز عن المشي لصعوبة الطريق وقوة هذا الماشي لما كانــت آيــة ولا معجزة" .[1]

فالمنع من معارضته بمعنى أنهم لا يقدرون على مثله, وليس بمقدورهم أصلاً أن يــأتوا بمثله وإن اجتمعوا, فالله سبحانه بصفاته وأفعاله ليس له مثيل ولا شبيه, القرآن كــلام الله تعالى، الذي ليس كمثله شيء، فكلامه ليس على نسق كلام المخلــوقين ألبتــة, ونظمه ليس على نسق نظم كلام العرب ولا على مستويات بلاغتهم ألبتة, بــدليل أن كلام البشر المحكي في القرآن لما قالوه لم يكن معجزا, ولكن لما حكاه الله عنهم بكلامه في القرآن بنظمه البديع صار معجزا.

فلو كانت العرب تعرف هذا النظم بهذه الكيفية لما تعجب منه فحول اللغة، فصح أن القرآن ونظمه ليس على بلاغة الناس أصلاً، وإنما هو أسلوب قرآني لم يألفوه من قبل، وقوة لن يصلوا إليها أبدا.

وهم لا يقدرون أصلاً على أن يأتوا بمثله؛ لأن الله حال بينهم وبين ذلك بمعنى أنهــم لا توجد عندهم هذه المقدرة الربانية، والقرآن معجز بذاته من نظم حروفــه إلى نظــم كلماته إلى أسلوبه البديع الذي لم يعهده العرب من قبل, ولو كان على نسق بلاغــة

(١) المرجع السابق (١٨/٣).

العرب لعرفوا معنى الحروف المقطعة في أوائل السور أو اعتادوا عليها ووجدت في لغتهم.

هذا وقد ذهب الشيخ أبو زهرة أن ابن حزم قد سار على منهجه في الأخذ بالظاهر دون تعليل فقال: " وإن ذلك الكلام يبدو بادىء الرأي غريبا من ابن حزم, ولكن المتأمل فيه يجده سائرا على مذهبه في نفي الرأي والحكم بظاهر القول, من غير تعليل, فالإتجاه إلى تعليل الإعجاز بأن السبب فيه بلاغته, التي علت عن طاقة العرب, والتي جعلتهم يخرون صاغرين بين يديه, من غير مراء ولا جدال يعد تعليلا, وهو من باب الرأي الذي ينفيه, والتعليل الذي يجافيه".[١]

وهذا الكلام على وجاهته يتعارض مع تعليل ابن حزم منع الناس من مماثلته بأنه كلام الله المعجز الذي لا يماثله شيء, فالله سبحانه كل أفعاله معجزة للبشر.

المطلب الثاني: نسبة الصرفة للراغب الأصفهاني (ت٥٠٢ هـ) :

أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل المعروف بالراغب الأصفهاني السني، فقد ذكر محقق مقدمة جامع التفاسير أنه من أئمة أهل السنة, كان من الحكماء العلماء من أهل أصفهان سكن بغداد واشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، توفي سنة ٥٠٢ هـ.[٢]

أولا: ذكر من نسب إليه القول بالصرفة:

نسب القول بالصرفة للراغب الأصفهاني على أنها وجه من وجوه الإعجاز الدكتور سامي عطا [٣], والخالدي [٤] , والدكتور جمال عبد العزيز[٥].

([١]) المعجزة الكبرى ص(٨٢).

([٢]) يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٨/١٢٠), وترجمته في مقدمة جامع التفاسير ص(١٣) للمحقق: الدكتور أحمد حسن فرحات.

([٣]) يُنظر: الصرفة دلالاتها لدى القائلين بها ص(٢١).

([٤]) يُنظر: الصرفة ص(٣٢٥).

([٥]) يُنظر: نظريات الإعجاز القرآني ص٧٧ .

واستدلوا على ذلك بكلامه في مقدمة تفسيره (جامع التفاسير) مع وجوه إعجاز القرآن الكريم، فكان مما قال: " إنّ الإعجاز في القرآن على وجهين: أحدهما: إعجاز متعلق بفصاحته، والثاني: بصرف الناس عن معارضته".[١]

ومن بعد أن يبسط القول في هذا الوجه يقول:

" وأمّا الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته، فظاهر أيضًا إذا اعتبر، وذلك أنّه ما من صناعة ولا فعلة من الأفعال محمودة إلا وبينها وبين قومٍ مناسبات خفية واتفاقات إلهية بدلالة أن الواحد يؤثر حرفة من الحرف، فينشرح صدره بملابستها، وتطيعه قواه في مزاولتها، فيقبلها باتساع قلب، ويتعاطاها بانشراح صدر،.... فلما رُئِيَ أهلُ البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كلّ وادٍ من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله تعالى جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته, لم يخف على ذي لبّ أنّ صارفًا إلهيًا يصرفهم عن ذلك، وأيّ إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيّرة في الظاهر أن يعارضوه ومجبرة في الباطن عن ذلك".[٢]

ثانيا:المناقشة:

الواضح من كلام الراغب أنه يقر بالإعجاز النظمي للقرآن الكريم، ويفهم من كلامه أن الناس بالتحدي بالقرآن المعجز في صورة المخير الذي يحاول أن يفعل، وهم بهذا الإعجاز النظميّ مجبرون على أن يتركوا المعارضة، فقوله(أن صارفا إلهيا يصرفهم عن ذلك) كأنَّه يريد بهذا الصارف الإلهي إعجازه البلاغي، ولا سيّما أنه أردف هذا بالاستفهام قائلا: "وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك؟" فهذا دالٌ على أنّ التخيير بالمعارضة هو في ظاهر الأمر تخيير في معارضة ما يمكن معارضته؛ لأنه لا معنى أن تخير فيما لا يتحقق فيه

---

(١) مقدمة جامع التفاسير ص ١٠٢.

(٢) مقدمة جامع التفاسير ص ١٠٢.

التخيير، ولكنه لما كان المخير في معارضته قد بلغ به حدًا لا تطيقه قوى العالمين كانوا في حقيقة أمرهم بهذا التجاوز به حد طاقتهم مجبرين على ترك المعارضة.

ولهذا كانت قولة الراغب في مفتتح قوله في الصرفة:" وأما الإعجاز المتعلق بصرف الناس عن معارضته، فظاهر أيضًا إذا اعتبر..." فيه إشارة إلى أن ظهور دلالة هذا في الإعجاز لا تكون إلا بالاعتبار، ولن يكون اعتبار إذا قلنا إن الصرف بسلب القدرة على معارضة ما تمكن معارضته، لأنّ الممنوع معارضته بهذا السلب لن يكون هو مناط الإعجاز، فلا تكون الآية نفسها هي المعجز، بل منزل تلك الآية،لا يشك عاقل في أن الله عز وجل معجز العالمين بما يشاء، وإنما الاعتبار في أن يكون الصرف عن المعارضة بأمر قائم فيما يُدعى الناس إلى معارضته، وذلك الأمر هو الذي يبهرهم ويعجزهم، وجميل قوله: " وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته..." فهو دالٌّ على أنّه بلغ في سمو منزلته في البلاغة حدًا قطع عن نفوسهم مجرد الطمع والاهتزاز إلى معارضته، فأوقعهم في الإبلاس والدهشة. [١]

كما أن قوله:" إذا اعتبر" يدل على أنه لا يرى الصرفة مذهبا له, وإنما يقول هذا من باب التنزل, واحتماله عقلا لا قبوله فعلا.

المطلب الثالث: نسبة الصرفة للرازي (ت٦٠٦هـ) :

التعريف به: هو العلامة أبو عبد الله فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين القرشي البكري الطبرستاني الأصولي المفسر انتشرت تواليفه في البلاد شرقاً وغرباً, مات سنة ٦٠٦هـ[٢].

أولا: ذكر من نسب إليه القول بالصرفة:

---

(١) يُنظر: تثوير القول بالصرفة للدكتور محمود توفيق ص(٧٩).

(٢) يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠).

ممن نسب القول بالصرفة للإمام الرازي: أحمد سيد محمد عمار[1] , ونعيم الحمصي[2], والدكتور سامي عطا.[3]

قالوا أن الإمام الرازي يقول بالصرفة مرة في السور القصار منعاً من المكابرة والتهمة في الدين, ويطلق القول بها ثانية على عمومه بلا تحديد, ففي تفسيره لآية التحدي في سورة البقرة يقول: "القرآن لا يخلو إما أن يقال: إنه كان بالغاً في الفصاحة إلى الفصاحة بحد الإعجاز, أو لم يكن كذلك, فإن كان الأول ثبت أنه معجز, وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة, فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة, ومع توافر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق للعادة, فكان ذلك معجزا, فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه, وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب", فهنا أطلق القول, ولم يحدد ذلك بسورة معينة, ثم يقول بعد ذلك " فإن قيل: قوله (فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ) , يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وسورة (يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ) ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن, فإن قلتم: إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر كان ذلك مكابرة, والإقدام على أمثال هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني, وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز فقد حصل المقصود, وإن لم يكن الأمر كذلك كان امتناعهم عن المعارضة مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً, فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز".[4]

---

(1) نظرية الإعجاز القرآني (ص :٦٩).

(2) فكرة إعجاز القرآن ص(١٠٢).

(3) الصرفة دلالاتها لدى القائلين بها ص(١٩).

(4) مفاتيح الغيب للرازي (١١٧/٢).

ثانيا: المناقشة:

إن هذه النسبة تقوم على نصين من كلام الرازي, أولهما يوهم بقوله بالصرفة عموماً , والثاني يوهم بقوله بالصرفة في قصار السور:

فأما النص الأول الذي يوهم بقوله بالصرفة عموما: فإن الرازي لما ذكر هذا القول عرضه على أنه الشق الثاني من كلامه, فقد كان يتكلم عن آية البقرة (﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة:٢٤] حيث قال:" الكلام في النبوة في الآية مسائل" ثم قال:"... وأعلم أن كونه معجزاً يمكن بيانه من طريقين, الأول: أن يقال: إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة: إما أن يكون مساوياً لسائر كلام الفصحاء, أو زائداً على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة, أو زائداً عليه بقدر ينقض, والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث" [(١)].

ثم قال الرازي:" فلما لم يأتوا بها –أي المعارضة – علمنا عجزهم عنها , فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم, وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتاً معتاداً , فهو إذن تفاوت ناقض للعادة , فوجب أن يكون معجزا". [(٢)]

فنحن لو أخذنا الطريق الأول الذي ذكره الرازي فإنه يفهم منه وبكل وضوح أن القرآن كله معجز بنظمه , وأن العرب عاجزون عن أبعاضه كما عجزوا عن جملته.

وصورة الطريقين كما عرضهما الرازي أن يقال للمعارضين: القرآن معجز بفصاحته وكفى , أو يقال لهم: إن القرآن معجز لعدم وجود المعارضة , وعدم المعارضة إما لفصاحته أو للمنع.

فالطريقان اللذان قررهما الرازي فيهما إثبات إعجازه عن طريق فصاحته, وزاد الصرفة في الطريق الثاني لمن لم يُسلم بفصاحته منعاً للأخذ والرد, وذلك لأن امتناع المعارضة

---

(١) تفسير الرازي (مفاتيح الغيب) (١١٥/٢).

(٢) المرجع السابق (١١٥/٢).

متفق عليه عند المعارضين, إذ لم يدع أحد معارضة تفوق القرآن في الصنعة البيانية حتى لو كانت المعارضة في قصار السور.

وأما النص الثاني للرازي: فعبارته التي ذكرها جاءت مسوقة للإجابة عن سؤال مفترض, افترضه الرازي وشرع يجيب عنه, وقد فهم الباحثون من جواب الرازي أنه يقر بالإعجاز البياني في طوال السور وبالصرفة في قصارها.

والحقيقة أن الرازي أراد أن يغلق الطريق على الذين يشككون في الفصاحة في قصار السور قائلا لهم على سبيل الفرض: لو سلمنا أن السور القصيرة ليست معجزة من الناحية البيانية لقصرها في معجزة بالصرفة.

والمعروف من منهج الإمام الرازي أن يسهب في إيراد الشبهات, ويسترسل في طرحها ثم يختزل الجواب عليها عند تقريره للمسألة في كثير من المواطن من تفسيره ومن لا يتابع الكلام من أوله فإنه يتخبط في الشبهات قبل أن يصل إلى جوابها.

والذي يظهر من خلال الأقوال التي نقلت عن الإمام الرازي والتي يقول فيها بالصرفة أنه قال بها من باب التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق.

وهذا ما ذهب إليه محمد أبو موسى في قوله:" إن الصرافة في نظر الرازي لإسكات اللجاجة, والتماحك, وقطع الشغب".[1]

والخلاصة: أن الرازي رحمه الله لا يقول بالصرفة , وإنما يرى أنه يمكن الأخذ بها دليلاً وحجة على الذين لم يتذوقوا فصاحة القرآن في السور القصار.

فالرازي لا يرتضي القول بالصرفة, وأن نسبة القول إليه على إطلاقه فيه بعض التجني على ذلك الإمام, فهو ينص صراحة في تفسيره على نقض الصرفة وبطلانها, ويبين الوجه الذي يرتضيه ويطمئن إليه في إعجاز القرآن, وهو أن القرآن معجز بسبب الفصاحة, حيث قال:" اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزاً , فقال بعضهم: هو الفصاحة , وقال بعضهم: هو الأسلوب , وقال ثالث: هو عدم التناقض ,

---

(1) الإعجاز البلاغي ص(٣٥٧).

وقال رابع: هو اشتماله على العلوم الكثيرة , وقال خامس: هو الصرف , وقال سادس: هو اشتماله على الأخبار عن الغيوب , والمختار عندي وعند الأكثرين أنه معجز بسب الفصاحة ". [١]

فهو ينص على الوجه المختار عنده في إعجاز القرآن الكريم, ثم يقول في نقض بقية الوجوه بما فيها الصرفة :"لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم , أو الإخبار عن الغيوب, أو عدم التناقض لم يكن لقوله (مفتريات) معنى, أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة صح ذلك لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام, سواء كان الكلام صدقاً أو كذباً, وأيضاً لو كان الوجه في كونه معجزاً هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في الفصاحة" [٢].

ويمكن الوقوف أيضاً بكل جلاء ووضوح على رأي الإمام الرازي في الصرفة من خلال كتابه الذي أفرده لإعجاز القرآن, وهو نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز, حيث قال:" قال النظام: إن الله تعالى ما أنزل الله القرآن ليكون حجة على النبوة بل كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام, والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به ". ثم شرع في بيان فساد ذلك من ثلاثة وجوه:

الأول: لو أن الله صرفهم عن المعارضة، وأعجزهم عنها، بعد أن كانوا قادرين عليها، لما استعظموا فصاحة القرآن، بل العكس هو الصحيح، وهو أنه يجب أن يكون تعجبهم من تعذر معارضة القرآن، بعد أن كانوا قادرين على المعارضة، وهذا يبطل ما قاله النظام.

الثاني: أن كلامهم قبل التحدي لم يكن مقاربا لفصاحة القرآن، ولو كان كذلك، لوجب أن يعارضوه بذلك، ولكن الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، مما يبطل هذه الدعوى.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٧/١٩٥).

(٢) المرجع السابق.

الثالث: ليس من المعقول أن ينسى العرب الفصحاء أساليبهم وصيغهم المعلومة في مدة يسيرة، لأن ذلك يدل على زوال العقل، ومعلوم أن العرب ما زالوا يحتفظون بعقولهم بعد التحدي، فبطل ما قاله النظام".[١]

وخلص الرازي من عرض الأقوال في إعجاز القرآن ومناقشتها ليقول:" ولما بطلت هذه المذاهب ولابد من أمر معقول حتى يصح التحدي به ويعجز الغير عنه, ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة علمنا أن الوجه في كون القرآن معجزاً هو الفصاحة " [٢].

المطلب الرابع: نسبة الصرفة للقرطبي (ت٦٧١هـ) :

التعريف به: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الأنصاري الخزرجي المالكي صاحب التفسير المشهور (الجامع لأحكام القرآن), من علماء السنة, توفى في مصر سنة ٦٧١هـ.[٣]

أولا:ذكر من نسب إليه القول بالصرفة:

نسب القول بالصرفة إلى القرطبي: الدكتور صلاح الدين رسلان , فقد عده من القائلين بالصرفة: قال:" وممن قالوا بالصرفة أيضاً إلى جانب النظام , وابن حزم , وابن سنان الخفاجي , والسيوطي: الجاحظ المعتزلي , والقرطبي الذي يعدها وجهاً من وجوه إعجاز القرآن".[٤]

ثانيا: المناقشة:

إن نسبة هذا القول إلى الإمام القرطبي لم يقم على حجة, ولم يُذكر مستنده, ولو تتبع كلام القرطبي عن الإعجاز لتبين أنه ينص على أن الصرفة قول فاسد, فقد ذكر في

---

[١] يُنظر: تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي ص ٥٥.

[٢] المرجع السابق ص ٥٨.

[٣] يُنظر ترجمته: شذرات الذهب لابن العماد (٣/٣٣٥).

[٤] يُنظر: رؤية منهجية جديدة لمباحث علوم القرآن ص(٢٣٢).

مقدمة تفسيره وجوه إعجاز القرآن الكريم, قال:" ووجوه إعجاز القرآن الكريم عشرة " [١] , ثم شرع في بيانها وقال بعد الانتهاء من عرضها:" قلت فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله عليهم, ووجه حادي عشر قاله النظام وبعض القدرية: إن وجه الإعجاز هو المنع من معارضته, والصرفة عند التحدي بمثله, وأن المنع والصرفة هو المعجزة دون ذات القرآن, وذلك أن الله صرف هممهم عن معارضته مع تحديهم بأن يأتوا بسورة مثله, وهذا قول فاسد, لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز, فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً, وذلك خلاف الإجماع, وإذا كان كذلك علم أن نفس القرآن هو المعجز, لأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة, إذ لم يوجد قط كلام على هذا الوجه, فلما لم يكن ذلك الكلام مألوفاً معتاداً منهم, دل على أن المنع والصرفة لم يكن معجزاً". [٢]

وبهذا يتضح أن القرطبي يقول بفساد الصرفة, ومخالفتها للإجماع على إعجاز القرآن بفصاحته وبلاغته.

المطلب الخامس: نسبة الصرفة لابن تيمية (ت٧٢٨هـ) :

التعريف به: هو تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي, شيخ الإسلام وأبرز علماء السنة، ولد بحرَّان سنة ٦٦١هـ، تربو مصنفاته على ثلاثمائة مجلد في علوم الإسلام المختلفة من أهمها: اقتضاء الصراط المستقيم, العقيدة التدمرية, درء تعارض العقل والنقل, مجموع الفتاوى, توفي سنة٧٢٨هـ. [٣]

---

[١] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٣/١).

[٢] المرجع السابق (٧٥/١).

[٣] يُنظر ترجمته: شذرات الذهب (٧٩/٦), الدرر الكامنة (١٦٨/١).

أولا: ذكر من نسب إليه القول بالصرفة: وصف الدكتور سامي عطا موقف ابن تيمية من الصرفة بالتضارب أي أنه يثبتها تارة وينفيها تارة أخرى, حيث قال: "ومنهم من تضاربت أقواله بين القول بالصرفة، أو نفيها، مثل: ابن تيمية".[1]

ثانيا: المناقشة:

لقد ناقش ابن تيمية وجوه الإعجاز القرآني، وبيّن أن الله تعالى قد تحداهم بالمعارضة ولو كانوا قادرين عليها لفعلوها فإنه مع وجود هذا الداعي التام المؤكد إذا كانت القدرة حاصلة وجب وجود المقدور، وكون القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحته وبلاغته فقط أو نظمه وأسلوبه فقط ولا من جهة إخباره بالغيب فقط ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط بل هو آية بينة معجزة من وجوه متعددة... ثم ضعف القول بالصرفة فقال:" ومن أضعف الأقوالِ – أي في إعجاز القرآن – قول من يقول من أهل الكلام: إنه معجز بصرف الدواعي مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً، ... وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضي التام فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات".[2]

وهذا يدل على أن ابن تيمية يرد القول بالصرفة ويعتبره من أضعف ما قيل في بيان وجه الإعجاز، غير أنه يقبله في كلامه السابق على سبيل التنزل مع المخالف.

ولذلك قال ابن تيمية في آخر كلامه: " فهذا غاية التنزل، وإلا فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته، لا يقدرون على ذلك، ولا يقدر محمد ﷺ نفسه

([1]) يُنظر: الصرفة دلالاتها لدى القائلين بها ص(١٩).

([2]) الجواب الصحيح لابن تيمية (٤٢٩/٥).

من تلقاء نفسه على أن يبدل سورة من القرآن، بل يظهر الفرق بين القـــرآن وســـائر كلامه لكل من له أدنى تدبر". [١]

وكلام ابن تيمية ليس فيه ما يدل على أنه يوافق القول بالصرفة؛ وذلك للآتي:

- كلامه حول الصرفة كان على سبيل المجادلة والمحاجة مع الخصم ويدل على ذلك قوله:" إذا قدر..".
- قوله الصريح: " فالصواب المقطوع به أن الخلق كلهم عاجزون عن معارضته".
- يكفي أنه وصفها بأنها "أضعف الأقوال " في الإعجاز.

المطلب السادس: نسبة الصرفة لابن كثير (ت٧٧٤هـ) :

التعريف به: هو: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشـــقي الفقيه الشافعي, الحافظ عماد الدين, المعروف بالحافظ ابن كثير, من علمـــاء الســـنة الكبار, صحب ابن تيمية, وأخذ عنه الكثير, وصنف في التفسير والحديث, والتـــاريخ والأحكام, توفى سنة ٧٧٤هـ [٢].

أولا: ذكر من نسب إليه القول بالصرفة:

أحمد سيد عمار[٣] , ومحمد أبو موسى[٤] , و سامي عطا[٥] , ولكن لم يكـــن عزو الصرفة لابن كثير على إطلاقها بل كان مقيداً بأنه جاء على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق.

واستدلوا على ذلك بقوله:" وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرفة , فقال: إن كان هذا القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله ولا في قواهم معارضته , فقد حصل المدعى وهو المطلوب, وإن كان

---

[١] الجواب الصحيح (٥/ ٤٢٩).

[٢] ينظر ترجمته : الأعلام (١/٣٢٠).

[٣] يُنظر: نظرية الإعجاز القرآني ص(٦٩).

[٤] يُنظر: الإعجاز البلاغي ص(٣٥٨).

[٥] يُنظر: الصرفة دلالاتها لدى القائلين بها ص(٢٠).

في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك , وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزيل والمجادلة والمنافحة عن الحق , وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار ". [1]

ثانيا: المناقشة:

إن ما ذكره الباحثون حول موقف ابن كثير هذا يستند إلى العبارة التي نقلوها من تفسيره, والتي تدل على أن ابن كثير يقول بالصرفة في قصار السور على سبيل التنزل والمجادلة.

والحقيقة أن هذا النص نقله ابن كثير كاملا عن الرازي وإن كان لم يصرح بنسبته إليه في هذا الموضع, فكلام ابن كثير و وتعليقه يبدأ من قوله " وبهذه الطريقة أجاب فخر الدين.....".

ويدل على ذلك أن ابن كثير يقول بعده بقليل:" تنبيه ينبغي الوقوف عليه: قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يعم كل سورة من القرآن طويلة كانت أو قصيرة, لأنها نكرة في سياق الشرط, فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه , فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها , وهذا لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً". [2]

وكأن ابن كثير قد خشي من اللبس في فهم ما نقله عن الرازي فكتب هذا التنبيه, ثم أعاد نقل عبارة الرازي مرة أخرى منسوبة للرازي ومبيناً فيها وجهة نظره, وفي هذه العبارة إزالة لكل شك أو وهم حصل من عبارته السابقة, فقال:" وقد قال الرازي في تفسيره: فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يتناول سورة

---

[1] تفسير ابن كثير (٦٢/١).

[2] المرجع السابق (٦٣/١).

الكوثر , وسورة العصر... " , وأعاد ابن كثير كلام الرازي كاملاً , ثم قال بعده:"هذا لفظه بحروفه" يقصد أنه كلام الرازي حرفيا, ثم علق بقوله:" والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها, طويلة كانت أو قصيرة" , ثم شـــرع بعدها يدلل على أن كل سورة معجزة طويلة كانت أو قصيرة.[1]

وقد قرر ابن كثير في البداية والنهاية بكل جلاء ووضوح إنكاره للصـــرفة , قال:" وأما من زعم من المتكلمين أن الإعجاز إنما هو من صرف دواعي الكفرة عـــن معارضته مع إنكار ذلك , أو هو سلب قدرتهم على ذلك, فقول باطل, وهو مفـــرع على اعتقادهم أن القرآن مخلوق".[2]

ومن خلال ما سبق يتبين أن ابن كثير يرفض الصرفة, ويعدها مفرعـــة مـــن اعتقاد فاسد, وأن الإعجاز يشمل طوال السور وقصارها على حد سواء.

المطلب السابع: نسبة الصرفة للسيوطي (ت٩١١هـ) :

التعريف به: هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الســـيوطي الشافعي, من علماء السنة, كان متبحراً في العلوم, توفي سنة ٩١١هـــ.[3]

أولا: ذكر من نسب إليه القول بالصرفة:

نسب القول بالصرفة إلى السيوطي: د. صلاح رسلان فقال:" وممن قالوا بالصرفة أيضاً إلى جانب النظام وابن حزم وابن سنان الخفاجي والسيوطي... "[4] .

وفي موضع آخر قال: بعد أن بين رأي الرماني في الصرفة:" وفي هذا يقول السيوطي:" فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة لسانهم إلى معارضة القرآن, وعجزوا عن الإتيان بمثله ولم يقصدوا لمعارضته , فلم يخف علـــى

---

[1] المرجع السابق.

[2] البداية والنهاية (٥٤٧/٨).

[3] يُنظر ترجمته: شذرات الذهب لابن العماد (٥١/٨).

[4] يُنظر: رؤية منهجية جديدة لمباحث علوم القرآن ص(٢٣٢).

ذوي البلاغة أن صارفها إلهيًّا صرفهم عن ذلك, وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزوا في الظاهر عن معارضته مصروفة في الباطن عنها. " ويستطرد السيوطي بعد ذلك مؤكداً وجهة نظره في القول بالصرفة بصفته وجهاً من وجوه إعجاز القرآن فيقول: "وقد جاء القرآن على نمط كلام العرب المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته ولا يقولوا مثلاً: أتيت بما لا قدرة لنا على جنسه, كما لا يصح للبصير أن يقول للأعمى: قد غلبتك بنظري, لأنه يقول له: إنما تتم لك الغلبة لو كنت قادراً على النظر وكان نظري أقوى من نظرك فأما إذا فقد حصول النظر فكيف تصح مني المعارضة! وهذا هو عين ما يراه ابن سنان الخفاجي الذي يعد من القائلين بالصرفة ". [١]

ثانيا: المناقشة:

إن نسبة الصرفة للسيوطي يتجلى فيها عدم التمحيص والتحقق من الأقوال, فإن النص الأول الذي عزاه الدكتور رسلان للسيوطي هذا ليس قول السيوطي وإنما هو كلام الراغب الأصفهاني, وقد نص السيوطي في (الإتقان)[٢], وفي (معترك الأقران)[٣] على أن هذا القول هو من تفسير الأصفهاني, وهو موجود في مقدمة جامع التفاسير للأصفهاني [٤].

أما النص الثاني الذي عزاه الدكتور رسلان للسيوطي وفيه:" وقد جاء القرآن على نمط كلام العرب المعتاد ليتم ظهور العجز عن معارضته... الخ "

فإن غاية ما يفيده أن القرآن جاء بالفصيح والأفصح ليوافق المعتاد في أساليب العرب حتى يكون إعجازه ظاهراً لديهم, وهذا لا يمنع أن يكون القرآن بشقيه معجزاً يخالف ما اعتاده العرب.

---

(١) المرجع السابق ص(٢٣١).

(٢) يُنظر: الإتقان في علوم القرآن (١١/٤).

(٣) يُنظر: معترك الأقران في إعجاز القرآن (٦/١).

(٤) يُنظر: مقدمة جامع التفاسير للراغب الأصفهاني ص(١٠٢) وتقدم التعليق على هذا النص في المطلب الثاني.

والأهم من ذلك أن العبارة أيضا ليست من كلام السيوطي أصلا وإنما هـي للصـدر موهوب بن عمر الجزري (ت ٦٧٥هـ), فقد عزاها له في (الإتقان). [١]

وفي المقابل نجد السيوطي ينص صراحة على بطلان القول بالصرفة, ويمكن معرفة ذلك من خلال كتابيه (معترك الأقران), و (الإتقان), فهو ينص على فساد القول بالصـرفة حيث قال:" زعم النظام أن إعجازه بالصرفة أي أن الله صرف العرب عن معارضـته وسلب عقولهم , وكان مقدوراً لهم, لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات, وهذا قول فاسـد بـدليل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨] فإنـه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم, ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائـدة لاجتمـاعهم, لمترلته مترلة اجتماع الموتى, وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره, هذا مع أن الإجمـاع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن, فكيف يكون معجزاً وليس فيه صفة إعجـاز! بل المعجز هو الله تعالى, حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله ".[٢]

وأضاف السيوطي:" وأيضاً فيلزم من القول بالصرفة زوال الإعجاز بـزوال زمان التحدي وخلو القرآن من الإعجاز , وفي ذلك خرق لإجماع الأمة أن معجـزة الرسول العظمى باقية ولا معجزة له باقية سوى القرآن "[٣], ثم ساق السيوطي بعدها ما يبطل الصرفة ويدل على فسادها من كلام الباقلاني.

وخلاصة الكلام أن السيوطي لم يقل بالصرفة, بل على العكس تماما فقد قرر فساد هذا المذهب.

---

[١] يُنظر: الإتقان في علوم القرآن (١٨/٤).

[٢] الإتقان (٦/٤).

[٣] الإتقان (٧/٤).

المبحث الرابع: المعارضون للقول بالصرفة

المطلب الأول: رد الخطابي للصرفة.

المطلب الثاني: رد الباقلاني للصرفة.

المطلب الثالث: رد القاضي عبد الجبار للصرفة.

المطلب الرابع: رد عبد القاهر الجرجاني للصرفة.

المطلب الخامس: رد ابن حمزة العلوي للصرفة.

المطلب السادس: رد الألوسي للصرفة.

المطلب السابع: رد الزرقاني للصرفة.

المبحث الرابع: المعارضون لمذهب الصرفة:

رفضت جمهرة كبيرة من العلماء القول بالصرفة, ولم يعتبروها وجها من أوجه إعجاز القرآن الكريم، وقاموا بردها وتفنيدها, سواء من العلماء المتقدمين أو المتأخرين أو المعاصرين, وفيما يلي عرض لأبرز من رد الصرفة من المتقدمين, ونماذج من ردود المتأخرين:

المطلب الأول: رد الخطابي(ت٣٨٨هـ) للصرفة:

التعريف به: هو حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستي الخطابي، أبو سليمان: فقيه محدث من علماء السنة، من أهل بست من بلاد كابل, من مصنفاته: معالم السنن , بيان إعجاز القرآن, غريب الحديث , توفي سنة ٣٨٨هـ.[1]

يعد الخطابي من أوائل من نقض القول بالصرفة من علماء أهل السنة, فقد بدأ ببيان مفهوم الصرفة ثم بين رأيه فيها, ورد عليهم بقوله: " إن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[الإسراء:٨٨], فأشار سبحانه في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها، لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها "[2].

ورده هذا رد لا يقبل الجدل, لأنه لو كان الله سلبهم القوة والقدرة لما ذكر تساندهم وتعاونهم وتظاهرهم حيث لا جدوى من اجتماع من لا قدرة لهم ولا اختيار.

المطلب الثاني: رد الباقلاني (ت٤٠٣هـ) للصرفة:

التعريف به: هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي, فقيه بارع، ومحدث حجة، على مذهب أهل السنة, له مؤلفات كثيرة

---

(1) يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (٢٣/١٧).

(2) إعجاز القرآن للخطابي ص(٢٣).

منها: شرح الإبانة؛ الإمامة الكبرى والإمامة الصغرى, إعجاز القرآن؛ توفي ببغداد سنة ٤٠٣هـ. [١]

رد الباقلاني الصرفة وأنكرها فهو يرى أن القرآن معجز ببلاغته, وأن البشر لا يستطيعون أن يقولوا مثله مهما حاولوا , أما الصرفة فلا يعدها وجها للإعجاز, وقد بين وجه تهافت هذا القول من عدة وجوه:

أولا: لو كان الأمر على ما ذهبوا اليه، وكان الإعجاز بالصرفة حقا، لكان الأقوى في الحجة، والأبين في الدلالة، أن يجيء القرآن في أدنى درجات البلاغة، لأن ذلك أبلغ في الأعجوبة، فإن الذي يعجز عن كلام هو في مستوى كلام الناس أو أدنى منه، يكون ذلك دليلا على أن هناك قوة غلابة، حالت بينه وبين المعارضة، ولم يكن هناك حاجة لمجيء القرآن الكريم في نظم بديع، ومستوى رفيع عجيب، لأن الأقرب إلى قوة الدليل، ووضوح الحجة- حين تكون الصرفة هي الوجه للإعجاز- أن يكون القرآن في مستوى كلامهم، أو دونه.

ثانيا: إننا لو سلمنا أن العرب المعاصرين للبعثة قد صرفوا كما يزعمون، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان.

ثالثا: إنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره. [٢]

وبهذه الأدلة لم يترك الباقلاني بابا إلا وأقفله في وجوه القائلين بالصرفة, فأجاد في ذلك وأفاد.

---

[١] يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/١٩٠).

[٢] يُنظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص(٤٢).

المطلب الثالث: رد القاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ) للصرفة:

التعريف به: هو أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي, من فقهاء الشافعية, له تصانيف كثيرة منها: المغني, وشرح الأصول الخمسة, توفي سنة ٤١٥هـ.[١]

رد القاضي عبد الجبار الصرفة بمفهومها عند النظام والجاحظ, ثم كان له رأي خالف فيه جميع من تقدموه ممن تحدثوا عنها، فقد أبعد مفهوم الجبرية، الذي ساد في مفهومها عند المعتزلة، لأن الصرفة عندهم جميعا، كانت أمرا خارجا عن إرادة القوم, مجبورين عليها جبرا.

وقدم بين يدي ذلك أدلة منها: أولا: لو كانوا ممنوعين من الإتيان بكلام فصيح، أو قول بليغ، لكان ذلك لا يختص بكلام دون كلام، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم، لما أمكنهم الكلام المعتاد، ولكن القوم ظلوا يتكلمون، ويأتون بالقول الفني الممتاز، ولم ينحدر مستوى بيانهم ، أو يهبط، ولكنه كان على علوه، لا يرقى إلى مستوى القرآن.

ثانيا: لو ثبت هذا المنع، لكان في حد ذاته هو المعجز، وليس القرآن، فإن من سلك هذا المسلك في القرآن، يلزمه أن لا يجعل له مزية ألبتة.

ثالثا: لو ثبت هذا المنع بأية صورة من صوره، لبطل بعض القرآن، ولما كان صحيحا قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨].

رابعا: القول بالصرفة يتعارض مع الآية السابقة، لأنه لا يقال في الجماعة إذا امتنع عليها الشيء: إن بعضها يكون ظهيرا لبعض، لأن المعاونة، والمظاهرة،إنما تمكن مع القدرة، ولا تصح مع العجز، والمنع.[٢]

وبعد أن قدم القاضي عبد الجبار هذه الأدلة التي نقض بها مفهوم الصرفة، توصل إلى مفهوم جديد للصرفة، وهو في هذه المرة يرتبط بالقوم أنفسهم، وليس شيئا خارجا

---

[١] يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٧/٢٤٤).

[٢] يُنظر: المغني في أبواب العدل والتوحيد للقاضي عبد الجبار (١٦/٣٢٤).

عنهم، أو مفروضا عليهم فرضا، وهو: " أن دواعيهم انصرفت عن المعارضة، لعلمهم بأنها غير ممكنة، على ما دللنا عليه، ولولا علمهم بذلك، لم تكن لتنصرف دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعا لمعرفتهم بأنها متعذرة".[١]

فلم يكن تركهم للمعارضة لأمر خارجي، وإنما لإحساسهم باليأس، وتيقنهم من العجز عن الإتيان بمثل القرآن، ثم ينهي القاضي حديثه عن مفهومه للصرفة، فيقول:" فالصحيح ما قلناه، من أنهم علموا بالعادة تعذر مثله، فصار علمهم صرفا عن المعارضة". [٢]

فالصرفة بهذا المفهوم الجديد عند القاضي عبد الجبار هي صرفة ذاتية، فهم أدركوا أن أسلوب القرآن في علوه وسموه، وروعة نظمه وبيانه، لا يمكن مجاراته، ومعارضته، فانصرفوا ذاتيا عن معارضته بلا قهر أو جبر من قوة خارجية، اقتناعا منهم ويقينا بالعجز، فالأمر في الحقيقة: انصراف، وليس صرفة.[٣]

المطلب الرابع: رد عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) للصرفة:

التعريف به: هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني المعتزلي, ولد سنة ٤٠٠هـ, شيخ العربية, من مؤلفاته: المغني, المقتصد؛ الجمل؛ الرسالة الشافية؛ دلائل الإعجاز، أسرار البلاغة, توفي سنة ٤٧١هـ. [٤]

رفض الإمام عبد القاهر الجرجاني الصرفة, محاولا في البداية كشف السبب الذي دعا أصحابها للقول بها, إذ يرى أن أول ما كان من أمر الصرفة اعتقاد أصحابها أن التحدي كان في لفظ القرآن ومعناه, ففند هذا بقوله تعالى:﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ

---

[١] المغني (١٦/٣٣٤).

[٢] المغني (١٦/٣٢٥).

[٣] يُنظر: التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة لوليد قصاب ص(٣٢٠).

[٤] يُنظر ترجمته: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٣٢).

﴿١٣﴾ [هود:١٣], ثم يقرر أن الافتراء راجع إلى المعنى , فيكون المراد إن كنتم تزعمون أني قد وضعت القرآن وافتريته وجئت به من عند نفسي , ثم زعمت أنه وحي من الله, فضعوا أنتم أيضا عشر سور وافتروا معانيها, فهو يستشهد بكلمة (مفتريات) على أن التحدي إنما هو بالنظم والأسلوب, لا بالمعنى.

كما أنه أفرد فصلا كاملا في رسالته الشافية (في الذي يلزم القائلين بالصرفة)، أبطل فيه مذهب الصرفة، بردود كافية شافية.

منها: أنه يلزم على ادعائهم هذا، أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفي جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها، من بعد أن أوحي إلى النبي ﷺ وتحدوا إلى المعارضة قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد، وإذا كان الأمر كذلك، وأنهم منعوا منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها، لزمهم أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، ولو عرفوا لجاء عنهم ذكره، ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ :إنا كنا نستطيع هذا قبل الذي جئتنا به، ولكنك سحرتنا، واحتلت علينا في شيء حال بيننا وبينه، وكان أقل ما يجب عليهم في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوا بعضهم إلى بعض، ويقولوا: ما لنا نقصنا في قرائحنا..؟ وإذا كان ذلك لم يرد ولم يُذكر عنهم , فهذا دليل على أنه قول فاسد.

ومنها: الأخبار التي جاءت عن العرب في شأن تعظيم القرآن، فمحال أن يعظموه وأن يبهتوا عند سماعه، ويستكينوا له، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه، ويعلمون أنه لم يتعذر عليهم، لأنهم لا يستطيعون مثله، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة، والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلا عليه، بل الواجب في مثل

هذه الحال أن يقولوا: إن كنا لا يتهيأ لنا أن نقول في معاني ما جئت به ما يشبهه، إنما نأتيك في غيره من المعاني بما شئت، وكيف شئت، بما لا يقصر عنه.

ومنها: أن الأصل في المعجزة أن تكون ظاهرة جلية يعرفها كل أحد, فلا تحتاج إلى كد وجهد وإعمال فكر حتى يعلمها الناس, ذاك أن من حق المنع إذا جعل آية وبرهانا لاسيما للنبوة, أن يكون في أظهر الأمور وأكثرها وجودا وأسهلها على الناس.

وخلاصة القول: إن دليل النبوة عند القائلين بالصرفة، إنما كان في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن، لا في نفس النظم، ولو كان ذلك صحيحا، لكان ينبغي إذا تعجب متعجب، أن يقصد بتعجبه إلى المنع من شيء كان يستطيعه، لا أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى الممنوع وهو القرآن الكريم، وهذا واضح لا يشكل[1].

وبهذا يكون عبد القاهر الجرجاني قد دحض مذهب الصرفة وقطع السبيل على من يقول بها وينصرها.

المطلب الخامس: رد ابن حمزة العلوي (ت٧٤٥هـ) للصرفة:

التعريف به:يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي الطالبي, من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم في اليمن, ولد في صنعاء سنة ٦٦٩هـ, له مؤلفات كثيرة منها: نهاية الوصول إلى علم الأصول , الحاوي في أصول الفقه، الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز, توفي سنة ٧٤٥هـ. [2]

لابن حمزة العلوي في إبطال الصرفة ثلاثة براهين:

البرهان الأول منها : أنه لو كان الأمر كما زعموه ، من أنهم صرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها ، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة ، وأن يميزوا بين أوقات المنع، والتخلية، ولو علموا ذلك، لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة

---

[1] يُنظر: الرسالة الشافية للجرجاني ص(١٤٦).

[2] يُنظر ترجمته: الأعلام للزركلي (١٤٣/٨).

التعجب، ولو تذاكروا لظهر وانتشر على حد التواتر، فلما لم يكن ذلـــك، دل علـــى بطلان مذاهبهم في الصرفة .

البرهان الثاني: لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة كما زعموه ، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن ، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته، وحسن فصاحته، فإن من المعلـــوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه، فإنه يدهش عقله، ويحتار لبه، ومـــا ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة، وحكاية كل قصة، فلو كان ما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة، لم يكن للتعجب من فصاحته وجه، فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دل على فساد هذه المقالة.

البرهان الثالث: الرجع بالصرفة التي زعموها، هو أن الله تعالى أنساهم هذه الصـــيغ، فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله، ولا شك أن نسيان الأمور المعلومة في مدة يســـيرة، يدل على نقصان العقل، ولهذا فإن الواحد إذا كان يتكلم بلغة مدة عمره، فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئا من تلك اللغة ، لكان دليلا على فساد عقلـــه وتغـــيره، والمعلوم من حال العرب، أن عقولهم ما زالت بعد التحدي بـــالقرآن، وأن حـــالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل، فبطل ما عول عليه أهل الصرفة .[١]

المطلب السادس: رد الألوسي (ت١٢٧٠هـ) الصرفة:

التعريف به: هو أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوســـي, فقيـــه ومفسر ومحدث, ولد في بغداد سنة ١٢١٧هـــ، من علماء السنة ، تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـــ, له عدة كتب قيِّمة، أبرزها تفسيره الكبير روح المعـــاني في تفســـير القرآن العظيم والسبع المثاني, توفي سنة ١٢٧٠هــ.[٢]

---

(١) يُنظر: الطراز للعلوي (٣٩١/٣).

(٢) يُنظر ترجمته: الأعلام (١٧٦/٧).

رد الآلوسي الصرفة سواء كانت بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته، أو كانت بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة، وبين بطلانها من أربعة أوجه:

الأول:أنه يستلزم أن يكون المعجز الصرفة، لا القرآن، وهو خلاف ما عليه إجماع المسلمين من قبل.

الثاني: أن التحدي وقع بالقرآن على كل العرب، فلو كان الإعجاز بالصرفة، لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ضرورة تحقق الصرفة بالنسبة إليه، فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له، والمعتاد لكل ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه، فيلزم أن يكون القرآن كذلك وليس كذلك.

الثالث: أنه يستلزم أن يكون مثل القرآن معتادا من قبل لتحقق الصرفة من بعد، فتجوز المعارضة بما وجد من كلامهم مثل القرآن قبلها.

الرابع: وهو خاص بمذهب المرتضى، أنه لو كان الإعجاز بفقدهم العلوم لتناطقوا به، ولو تناطقوا لشاع، إذ العادة جارية بالتحدث بالخوارق، فحيث لم يكن دل على فساد الصرفة بهذا الاعتبار. [1]

وختم بقوله: "وأبعد الأقوال عندي كونه _ أي الإعجاز_ بالصرفة المحضة، حتى أن قول المرتضى فيها غير مرتضى، كما لا يخفي على من أنصفه ذهنه". [2]

المطلب السابع: رد محمد الزرقاني (ت ١٣٦٧هـ) للصرفة:

التعريف به: هو الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني الأزهري، من أهالي الجعفرية في المحافظة الغربية من مصر, ونسبته إلى زرقان وهي بلدة تابعة لمحافظة المنوفية, ولد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري, وله كتاب: (مناهل العرفان في علوم القرآن), توفي سنة ١٣٦٧هـ. [3]

---

[1] يُنظر: روح المعاني للآلوسي (٢٧/١).

[2] المرجع السابق (٣٣/١).

[3] يُنظر ترجمته: الأعلام للزركلي (٢١٠/٦).

بدأ الزرقاني بتوضيح شبهة القول بالصرفة فقال:"ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة، أي: صرف الله العرب عن معارضته، على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية، وضربوا لذلك مثلا، فقالوا: إن الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الاختيارية، ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعده همته، وثبط عزيمته، وإما لأن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه، فعطل آلاته ووسائله، وعاق قدرته قهرا عنه، على رغم انبعاث همته نحوه، وتوجه إرادته إليه، فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة، بل لواحد من ثلاثة:

أولها: أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم.

ثانيها: أن صارفا إلهيا زهدهم في المعارضة، فلم تتعلق بها إرادتهم، ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي.

ثالثها: أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية، وعاق قدرتهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه همتهم إليها". [١]

وبعد هذا أخذ الزرقاني في تفنيد شبههم, فبين أن هذا القول بفروضه التي افترضوها، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق والواقع.

أما الفرض الأول: فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة، ودوافعها كانت ماثلة متآخذة، وذلك لأدلة كثيرة:

منها: أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه، ثم سجل العجز عليهم، وقال بلغة واثقة: إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا، ولن يفعلوا، ولو ظاهرهم الإنس والجن، فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا، ولو كانوا أجبن خلق الله.؟

---

[١] مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (٢/٢٩٢).

ومنها: أن صناعتهم البيان، وديدنهم التنافس في ميادين الكلام، فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة.؟

ومنها: أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شيء لديهم، وهي عقائـــدهم المتغلغلـــة فيهم، وعوائدهم المتمكنة منهم، فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المســـاجلة أكثر من هذا..؟ ما دامت المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا.

وأما الفرض الثاني: فينقضه الواقع التاريخي أيضا، ودليلنا على هذا ما تـــواترت بـــه الأنباء، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوســـهم، ونالـــت منالها من عزائمهم، فهبوا هبة رجل واحد، يحاولون القضاء علـــى دعـــوة القـــرآن، بمختلف الوسائل، فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه، ولم يدعوا بابا إلا دخلوه. لقد آذوه، وآذوا أصحابه، فسبوا من سبوا، وعذبوا من عذبوا، وقتلوا من قتلوا. ولقد قـــاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة، لا يبيعون لهم ولا يبتاعون، ولا يتزوجون منهم، ولا يزوجون، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر. ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد مفاوضات عدة، وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية، فلما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم، فيعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، فـــأبى أيضا, ولقد اتهموه ﷺ بالسحر، وأخرى بالشعر، وثالثة بالجنون، ورابعـــة بالكهانـــة، وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم، فيبهتونه، ويكذبونه, ولقد شدوا وطأهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فرارا إلى الله بدينهم, ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم، وأمره بالهجرة, ولقد أرســـلوا إليـــه الأذى بعد ذلك في مهاجره، فشبت الحرب بينه وبينهم في خمس وسبعين موقعة، منها سبع وعشرون غزوة، وثمان وأربعون سرية.

فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كـــانوا مصـــروفين عـــن معارضة القرآن، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول إلى هـــذا الميدان.؟؟

وأما الفرض الثالث: فينقضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبـــوا بـــالقرآن قعدوا عن معارضته، اقتناعا بإعجازه، وعجزهم الفطري عـــن مســـاجلته، ولـــو أن عجزهم هذا كان لطارئ مباغت عطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التي شرحناها، ففوجئوا بما ليس في حسبانهم، ولكان هذا مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا لأنفسهم العذر، وليقللوا من شأن القرآن في ذاته، ولعمدوا إلى كلامهم القديم، فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن، يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر، أن يتبينـــوا الكذب في دعوى إعجاز القرآن، وكل هذه اللوازم باطلة، فبطل ما استلزمها وهـــو القول بالصرفة. [1]

---

[1] يُنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني (٢/٢٩٣).

المبحث الخامس: القيمة العلمية لمذهب الصرفة

يتجلى بعد هذا العرض لدلالات الصرفة عند القائلين بها, ونقض ورد المعارضين لهـا, أن مذهب الصرفة في غاية البطلان والفساد، بكل دلالاته سواء كانت الصرفة صرف همم الناس عن معارضة القرآن، ولولا هذا الصرف لاستطاعوا الإتيان بمثل القرآن, أم كانت الصرفة بسلب العلوم التي بها يستطيعون معارضة القرآن.

وقد تقدم تفصيل الرد والنقض لمذهب الصرفة من خلال عرض أقوال المعارضين لهـا, ويمكن أن نخلص منها إلى:

أن مذهب الصرفة مردود بنصوص القرآن, والسنة, والإجماع, والواقـع التـاريخي, ودلالة العقل.

أولا: نصوص القرآن:

القول بالصرفة يؤدي إلى كون القرآن ليس بمعجز بذاته، وإنما المعجز أمر خارجي عنه، وهو المنع، مما يترتب عليه أن لا فضيلة لكلام الله على كلام غيره, وآيات القـرآن صريحة في أن الإعجاز في القرآن ذاتي بمزاياه وصفاته: ومنها:

- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠ -٥١], أي أن القرآن معجزة تفوق كل معجزة يقترحونها ويطلبونها.

- ما ورد من آيات تبين عظمة هذا القرآن ومدى تأثيره في قلوب الناس: **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [فصلت:٢٦] , لعلم الكفار بتأثيره البالغ في نفس من يستمع له.

- قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد:٣١] وجواب (لو) محذوف، وتقديره: لكان هذا القرآن, أي لو كان من شان كتاب أن يفعل مثل هذه الأمور لكان هذا القرآن الذي لو نزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله.

- الآيات التي تحدى الله فيها الخلق أن يأتوا بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه تبطل القول بالصرفة, كقوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣] , وكقوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨] .

فآيات التحدي هذه تدل على أن إعجاز القرآن بذاته، فلا يعقل أن يتحداهم الله ويدعوهم إلى الاجتماع، ثم يسلبهم كامل قدراهم وقوهم؟ إن هذا بمثابة من يتحدى أمواتاً؟ وهل عجز الموتى مما يُحتفى بذكره؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فإن هذه الصرفة تجعل مطالبة الخليقة في الإتيان بمثل القرآن مطالبة ظاهرها أهم مخيرون في فعل ما طولبوا به تخييرا مطلقا, وباطنها أهم مجبرون على ترك فعل ما طولبوا به إجبارا مفاجئا لا مخلص منه, ولا إرادة لهم فيه, ولا يملكون له دفعا, فهم قادرون عاجزون في وقت معا, وهذا عبث محض تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا[1] .

---

[1] مداخل إعجاز القرآن لمحمود شاكر ص(٦١).

ثانيا: من السنة:

القول بالصرفة يتعارض مع ما اشتهر ونقل عن العرب من إعجابهم الشديد بـالقرآن, وانبهارهم بفصاحته وبلاغته وبديع نظمه وأسلوبه, ، كما جاء في قصة أنيس بن جنادة أخي أبي ذر رضي الله عنه، حيث لقي النبي بمكة وسمعه يتلو القرآن وكان قد سمع مقالة قريش فيه أنه ساحر, وشاعر, وكاهن, وكان أنيس من الشعراء فقال لما سمعه:((لقد سمعت قول الكهنة, فما هو بقولهم, ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر, فما يلتئم على لسان أحد أنه شعر, والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون)).[1]

ومثل قصة الوليد بن المغيرة ووصفه للقرآن بقوله:((والله إن لقوله الذي يقول حلاوة, وإن عليه لطلاوة, وإنه لمثمر أعلاه, مغدق أسفله, وإنه ليعلو وما يعلى, وإنه ليحطم ما تحته)) [2].

فهذه الروايات من حال العرب, تنفي القول بالصرفة، فلو كان إعجاز القرآن بالصرفة, لما ظهر ذلك منهم.

ثالثا: الإجماع:

انعقد إجماع السلف رضوان الله عليهم على أن المعجز هو القرآن لا الصرفة؛ فالقول بها مخالف لما أجمع عليه سلف الأمة.

قال القرطبي: "وهذا فاسد لأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا إن المنع والصرفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزاً، وذلك خلاف الإجماع "[2].

([1]) أخرجه مسلم في صحيحه, كتاب فضائل الصحابة, باب فضائل أبي ذر (١٩١٩/٤) رقم الحديث (٢٤٧٣).

([2]) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة, باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله تعالى من الإعجاز وأنه لا يشبه شيئا من لغاتهم مع كونهم من أهل اللغة وأرباب اللسان (١٩٨/٢) , والحاكم في المستدرك, كتاب التفسير, تفسير سورة المدثر (٥٥٠/٢) وقال:" صحيح الإسناد على شرط البخاري". ووافقه الذهبي.

[2] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٧٥/١).

رابعا: الواقع التاريخي:

- مما يرد القول بالصرفة بمعنى أن الله صرف همم الناس ودواعيهم عـــن معارضـــة القرآن أن التاريخ يشهد بخلاف ذلك, فدواعيهم للمعارضة موفورة متضـــافرة, فقد جبل العرب على الأنفة والحمية والعزة, ثم كانوا في درجة عالية من الفصاحة والبلاغة يفاخرون بها, ثم جاء القرآن بتسفيه الأحلام وتضليل الآباء والأجـــداد , وهدم المعتقدات , ومحو العادات, أليس هذا كاف لإثارة وإشعال همتهم للـــدفاع والمواجهة؟ أجل لقد آتت هذه الأسباب ثمارها والتاريخ يشهد بأن القضاء علـــى هذه الدعوة كان شغلهم الشاغل, فلم يدعوا وســـيلة إلا جربوها:بـــدأ الأمـــر بالمفاوضات والعروض المغرية, ثم انتقل إلى الإيذاء والسب والشتم والقتل لأتباع هذه الدعوة, ثم المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية, ثم تشويه صورة هذه الدعوة في الأفاق, يتجلى في اتهامه ﷺ بالجنون والسحر والكهانة والشعر وغيرها, ويتعقـــد الأمر أكثر بالتآمر على قتل رسول الله ﷺ، ثم كانت الهجـــرة للمدينـــة وبدايـــة النشوب في حروب استهلكت أموالهم وأرواحهم, مع أن الله قد فتح لهم بابا لإنهاء هذا الأمر ولم يطلب منهم سوى الإتيان بمثل القرآن!! فكيف يقال بعد هذا كله إن هممهم كانت غير متعلقة بتلك المعارضة !!
- ومما يرد القول بالصرفة أيضا حصول محاولات لمعارضة القرآن، نقلها التاريخ عن مسيلمة وغيره، وإن كانت تلك المعارضات من مسيلمة وغيره في غاية الإسفاف، مما جعل أصحابها مدعاة للسخرية والاستهزاء من العرب, وقد كثرت في زماننـــا هذه المحاولات من أعداء الإسلام, لا سيما في المواقع الإلكترونية, ولو صرف الله الناس جبرا عن المعارضة, لما وُجد من يعارض القرآن ألبتة.

خامسا: دلالة العقل:

- يلزم من القول بالصرفة أن يكون كلام العرب في الجاهلية، وقبل التحدي يضاهي القرآن في الفصاحة والبلاغة وبديع النظم, ولكن لما لم يوجد في كلامهم ما يماثـــل

القرآن، ليبطلوا به أمر الرسول ﷺ, عُلم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان.

- يلزم من القول بسلب العرب العلوم اللازمة للمعارضة، أن يكون العرب بعد التحدي مباشرة وحصول هذا السلب, قد نقصوا في قرائحهم، وتدنت أساليبهم في شعرهم ونثرهم، ولأحسوا بذلك، ولتناقلوا ذلك بينهم, ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا، واحتلت في شي حال بيننا وبينه، فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور كما لا يخفي، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم ويشكوه البعض إلى البعض، ويقولوا ما لنا قد نقصنا في قرائحنا، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.
- لو كان الإعجاز بالصرفة, لكان نزول القرآن في مرتبة أقل من حيث الفصاحة والبلاغة أبلغ في التحدي وأدل على الإعجاز من نزوله بهذه الدرجة العالية من البيان.

وأختم بأن القول بالصرفة في إعجاز القرآن, كان مدخلا ومستندا لأعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم للطعن في إعجاز القرآن وبديع نظمه وأسلوبه, والتشكيك في مصدريته, بغية الطعن في النبوة وفي هذا الدين!

فقال المستشرق جولد تسيهر صاحب كتاب (مذاهب التفسير الإسلامي):"إن إعجاز القرآن ليس إلا في تغلبه على الشعر وسجع الكهان, وليس معجزاً في ذاته".[١]

ويقول حول بلاغة القرآن في مكة والمدينة: " إن القرآن في مكة ذا قيمة رفيعة، أما في المدينة فقد هبط مستواه".[٢]

ويقول في موضع آخر: " في العصر المكي جاءت المواعظ التي قدم فيها محمد الصور التي أوحتها حميته الملتهبة في شكل وهمي خيالي حاد، ولكن حمية النبوة وحدها

---

(١) مذاهب التفسير الإسلامي، لجولد تسهير، ص١٢٥.

(٢) المرجع السابق ص (١٣٠).

أخذت في عظات المدينة والوحي الذي جاء بها قمدأ رويداً رويـــداً , حيـــث أخـــذت البلاغة في هذا الوحي تصبح ضعيفة شاحبة, كما أخذ الوحي نفسه يترل على مستوى أقل, بحكم ما كان يعالجه من موضوعات ومسائل, حتى صار أحياناً في مستوى النثـــر العادي".[١]

وأنى لهذا المستشرق اليهودي المجري أن يتذوق بلاغة القرآن ويحكـــم علـــى أسلوبه!!

ومن ناحية أخرى كان طرح هذه القضية دافعا للعلماء قـــديما وحـــديثا إلى البحث في وجوه إعجاز القرآن, والكشف عن أسرار البلاغة في هذا الكتاب المـــبين, المترل من عند الله العزيز الحكيم قرآنا عربيا, مما عاد بالخير على الدراسات القرآنيـــة والبلاغية, فأكثر ما كتب العلماء في البلاغة والفصاحة كان في ظل القـــرآن وبيـــان إعجازه , حتى زخرت المكتبة الإسلامية بالعديد من المؤلفـــات في إعجـــاز القـــرآن وبلاغته.[٢]

---

(١) المرجع السابق ص(٢١).

(٢) يُنظر: المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني للدكتور أحمد جمال العمري ص(٣٢).

الخاتـــــمة

الحمد لله الذي وفقني لإتمام هذا البحث فله الحمد والمنة أولا وآخرا.

وبعد هذا العرض لقضية الصرفة بين القبول والرد, كان من أهم النتائج التي توصلت إليها:

- اتخذت الصرفة ثلاث صور, الأولى: صرف العرب عن الإتيان بمثل القرآن جـبرا وهو في مقدورهم, وهذا مفهوم النظام.

  والثانية: صرف همم العرب عن معارضة القرآن إن لم يكن في مقدورهم حـتى لا يلتبس الأمر على العامة, وهذا مفهوم الجاحظ والرماني.

  والثالثة: أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن بسلب العلوم التي يستطيعون بها المعارضة, ولولا هذا لكانت في مقدورهم, وهذا مفهوم الشريف المرتضى وابن سنان الخفاجي.
- للصرفة معنى مقبول وهو مفهوم القاضي عبد الجبار للصرفة بمعنى انصراف العرب عن معارضة القرآن ذاتيا بعد تيقنهم في أنفسهم العجز عن ذلك.
- البحث في مصدر الصرفة يظل أمرا اجتهاديا لا يمكن الجزم به, ولكن يمكن القول بأن أول من جاهر بهذه المقولة هو إبراهيم النظام من المعتزلة الذي تـأثر بفكـر البراهمة في إنكار النبوات.
- القول بالصرفة ليس قولا لجميع المعتزلة, فكثير من المعتزلة يرده وينقضه, كما أن من قال بالصرفة من المعتزلة لم يتفقوا على مفهوم محدد لها, فمفهوم الجاحظ يختلف عن مفهوم النظام مثلا.
- أخذ القول بالصرفة خطا تصاعديا عند القائلين بها, فبدأت الفكرة عند النظام, ثم تطورت قليلا عند الجاحظ, فبدأ يعلل مثل هذه الفكرة في الإعجاز, ثم أصـبحت عند الرماني وجها من وجوه إعجاز القرآن, ثم يأتي الشريف المرتضـى فتحتـل الصرفة حيزا كبيرا من كتاباته, فيوضح كيفيتها, ويحدد تفاصيلها بشكل أدق.

- ضرورة تحري الدقة في نسبة الأقوال والآراء إلى أصحابها, وعدم بتر النصوص عن سياقها, لأن هذا الفعل قد يوقع في أخطاء علمية, ويؤدي إلى فهم النصوص فهما منحرفا عن مقصود أصحابها, كما حدث في نسبة الصرفة إلى بعض العلماء ممن قال بفساد الصرفة وبطلانها.
- اتخذ بعض العلماء القول بالصرفة طريقا في الرد على المعاندين والجاحدين لإعجاز القرآن من باب التترل والمجادلة مع الخصوم, مع اعتقادهم بفساد هذا القول وضعفه.
- تطور الآراء التي جاءت للرد على فكرة الصرفة وإنكارها, فمناقشة الخطابي لها كان موجزا معتمدا على الأدلة النقلية, ثم يتطور الأمر عند الباقلاني الذي يولي المسألة عناية أكبر ثم يأتي القاضي عبد الجبار ويناقش كل صورها ويبطلها مبرزا دلالة العقل في ردها, في حين نجد عبد القاهر الجرجاني يخصها بحديث مطول في رسالته الشافية ينقض فيه تلك الفكرة ويبين بطلانها.
- إن القول بالصرفة قول متهافت ومذهب فاسد باطل بنصوص القرآن والسنة, ومخالف للإجماع, ومناقض للتاريخ والواقع, ومردود بالأدلة العقلية.

وختاما أسأل الله أن يعفو عن كل خطأ وزلل, وأن يجعل هذا البحث علماً نافعاً, وعملاً صالحاً متقبلاً, خالصاً لوجهه الكريم, إنه جواد كريم.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن, جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ), تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث بالقاهرة.

٢- الاعتقاد و الهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأهل الحديث, لأحمد بن حسين البيهقي, دار الآفاق الجديدة, الطبعة الأولى, ١٤٠١هـ.

٣- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم, الدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة, الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٤- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية, مصطفى صادق الرافعي ، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الكتاب العربي,بيروت, الطبعة الثامنة, ١٤٢٥هـ.

٥- إعجاز القرآن, أبوبكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف بالقاهرة، الطبعة الثالثة.

٦- الأعلام, قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين, لخير الدين الزركلي, دار العلم للملايين, بيروت/ لبنان, الطبعة: الخامسة عشر, ٢٠٠٢م.

٧- إنباه الرواة على أنباه النحاة, لعلي بن يوسف القفطي, تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار الفكر العربي,القاهرة, ومؤسسة الكتب الثقافية,بيروت,الطبعة: الأولى, ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٨- البداية والنهاية, لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي, تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي, بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر, القاهرة, الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٩- بيان إعجاز القرآن الكريم, لأبي سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم الخطابي(ت٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول، دار المعارف بالقاهرة, الطبعة الرابعة.

١٠-البيان في إعجاز القرآن, للدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمـار, الأردن, الطبعة الثالثة, ١٤١٣هـ.

١١-تثوير القول بالصرفة (دراسة في إعجاز القرآن الكريم), للدكتور محمود توفيق محمد سعد, شبكة الألوكة الإلكترونية.

١٢-التحرير والتنوير, للشيخ محمد الطاهر بن عاشور, دار سحنون, تونس, الطبعة الأولى, ١٩٩٧م.

١٣-التراث النقدي والبلاغي لمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري, للدكتور وليد قصاب، دار الثقافة، الدوحة/ قطر، ١٩٨٥م.

١٤-تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز, محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) تحقيق: أحمد حجازي، دار الجليل, بيروت, الطبعة الأولى, ١٤١٢هـ.

١٥-تفسير القرآن العظيم, لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، دار الفكر, بيروت, ١٤٠١هـ.

١٦-تهذيب اللغة, لأبي منصور الأزهري, تحقيق: مجموعة من الباحثين, المؤسسة المصرية العامة للتأليف.

١٧- الجامع الصحيح "سنن الترمذي", لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي, تحقيق: أحمد محمد شاكر, دار إحياء التراث العربي, بيروت, بدون طبعة.

١٨- الجامع لأحكام القرآن, لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت, الطبعة الثانية, ١٤٠٥هـ.

١٩- الحيوا ن, لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجليل، بيروت، ١٤١٢هـ.

٢٠- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة , لأحمد بن علي ابن حجر العسقلاني, تحقيق: محمد عبد المعيد خان, مجلس دائرة المعارف العثمانية, حيدر أباد/ الهند, الطبعة: الثانية, ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

٢١-دلائل النبوة, لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي, تحقيق: عبد المعطي قلعجي, دار الكتب العلمية, بيروت/ لبنان, الطبعة: الأولى, ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٢٢- رسائل الجاحظ, لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) شرح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية, بيروت, الطبعة الأولى,١٤٢٠هـ.

٢٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, لأبي الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، بيروت، ١٩٧٨م.

٢٤- سر الفصاحة, لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي , تصحيح وتعليق عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٩٥٣م .

٢٥- سنن ابن ماجه, للحافظ محمد بن يزيد القزويني, تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, دار الجيل, بيروت, الطبعة: الأولى, ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٢٦- سنن أبي داود, لسليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني, تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد, دار الفكر, بيروت/ لبنان, الطبعة: الأولى, بدون تاريخ.

٢٧-السنن الكبرى, لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي, تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري, سيد كسروي حسن, دار الكتب العلمية, بيروت/ لبنان, الطبعة: الأولى, ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٢٨-سير أعلام النبلاء, لمحمد بن أحمد الذهبي, تحقيق: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي, مؤسسة الرسالة, بيروت, الطبعة التاسعة, ١٤١٣هـ.

٢٩- شذرات الذهب, لشهاب الدين عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي, تحقيق: عبد القادر الأناؤوط, ومحمود الأرناءوط, دار ابن كثير, دمشق, الطبعة: الأولى, ١٤٠٦هـ.

٣٠- شرح الأصول الخمسة،لعبد الجبار الهمذاني, تحقيق: عبد الكريم عثمان،مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الثالثة , ١٩٩٦م.

٣١- صحيح سنن أبي داود , لمحمد ناصر الدين الألباني , مكتبة المعارف , الرياض , الطبعة: الثانية الجديدة , ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٢- صحيح مسلم, للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري, تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي, دار إحياء التراث العربي, بيروت/ لبنان, الطبعة: الأولى, ١٣٧٥هـ- ١٩٥٥م.

٣٣-الصرفة, للدكتور محسن الخالدي, بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية العدد الثاني عام ٢٠٠٤م.

٣٤-الصرفة: دلالاتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها, للدكتور سامي عطا, مكتبة صيد الفوائد الألكترونية.

٣٥- طبقات المعتزلة, القاضي عبد الجبار بن أحمد (ت٤١٥هـ) ، تحقيق علي سامي النشار, مصر, ١٩٧٢م.

٣٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز, يحيى بن حمزة اليمني العلوي (ت ٧٤٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت, ١٤٠٢هـ.

٣٧- العين, للخليل بن أحمد الفراهيدي, تحقيق: مهدي المخزومي,وإبراهيم السامرائي, دار الشؤون الثقافية العامة بالعراق.

٣٨-الفرق بين الفرق, عبد القاهربن طاهرالبغدادي (ت ٤٢٤هـ)، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة , بيروت.

٣٩- الفصل في الملل والأهواء والنحل, علي بن أحمد بن حزم (ت٤٥٦هـ)، تحقيق:محمد إبراهيم نصر وعبدالرحمن عميرة, دار الجيل , بيروت, ١٤٠٥هـ.

٤٠- فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة حتى عصرنا الحاضر, لنعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة, بيروت, الطبعة الثانية,١٤٠٠هـ.

٤١- فكرة النظم في تطورها وأهدافها, للدكتور بسيوني عرفة، دار الرسالة بالقاهرة، الطبعة الأولى, ١٩٨٢م.

٤٢- القرآن الكريم رؤية منهجية جديدة لمباحث علوم القرآن, للدكتور صلاح الدين بسيوني رسلان, مكتبة نهضة الشرق, القاهرة.

٤٣-القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم (عرض ودراسة), للدكتور إبراهيم التركي, بحث منشور في مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها, العدد الثاني عام ١٤٣٠هـ.

٤٤-القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم (عرض ونقد), للدكتور عبد الرحمن الشهري, بحث منشور في مجلة الدراسات القرآنية بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض, العدد الرابع ,عام ١٤٣٠هـ.

٤٥- لسان العرب, لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري, دار صادر, بيروت, الطبعة: الأولى, ١٤١٠هـ.

٤٦- محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي , تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، ط : دار إحياء الكتب العربية لعيسى الحلبي .

٤٧-المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, لابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت٥٤١هـ)، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وزارة الأوقاف القطرية, الطبعة الأولى.

٤٨-مداخل إعجاز القرآن, لمحمود محمد شاكر, مطبعة المدني, الطبعة الأولى, ١٤٢٣هـ.

٤٩-مذاهب التفسير الإسلامي, لجولد تسيهر, دار أقرأ, ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٥٠- المستدرك على الصحيحين, لمحمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري, تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا, دار الكتب العلمية, بيروت, الطبعة: الأولى, ١٤١١هـ -١٩٩٠م.

٥١- مسند الإمام أحمد بن حنبل, لأحمد بن حنبل الشيباني, تحقيق: شعيب الأرناءوط, مؤسسة الرسالة, بيروت, الطبعة: الأولى, ١٤٢١هـ -٢٠٠١م.

٥٢-مشكلة الألوهية, لمحمدغلاب, دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة, ، الطبعة الثانية, ١٩٥١م.

٥٣-معترك الأقران في إعجاز القرآن, جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة .

٥٤-المعجزة الكبرى- القرآن, لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى(ت١٩٧٤م)، دار الفكر العربي بالقاهرة, بدون تاريخ.

٥٥-معجم الأدباء, لياقوت الحموي, دار المأمون بمصر, ١٣٥٥هـ.

٥٦- معجم المؤلفين, لعمر رضا كحالة, مؤسسة الرسالة, بيروت, بدون طبعة.

٥٧- المغني في أبواب التوحيد والعدل, للقاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥هـ),تحقيق: أمين الخولي (ج١٦- إعجاز القرآن)، الشركة العربية للطباعة والنشر, القاهرة,١٣٨٠هـ.

٥٨- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير), فخر الدين محمد بن عمرالرازي (ت٦٠٦هـ) ، دار إحياء التراث العربي, بيروت, الطبعة الثالثة.

٥٩- مقالات الإسلاميين, لأبي الحسن الأشعري, تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد, دار الكتب العلمية.

٦٠-مقاييس اللغة ,لابن فارس, تحقيق: عبد السلام هارون, دار الجيل, الطبعة الأولى,١٤١١هـ.

٦١- مقدمة جامع التفاسير، مع تفسير الفاتحة ومطالع سورة البقرة، للإمام العلامة أبي القاسم الراغب الأصفهاني، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار الدعوة، الكويت,الطبعة الأولى, ١٩٨٤م.

٦٢- الملل والنحل, لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني, دار المعرفة ,بيروت, ١٤٠٠هـ.

٦٣-مناهل العرفان في علوم القرآن, محمد عبد العظيم الزرقاني، دار المعرفة, بيروت, الطبعة الثانية,١٤٢٢هـ.

٦٤-المنحى الاعتزالي في بيان إعجاز القرآن, للدكتور أحمد أبـــو زيـــد, مكتبـــة المعارف, الرباط, ١٩٨٦م.

٦٥-الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة), للشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي, تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي, مؤسسة الطبع والنشر ,مشهد ,إيران, الطبعة الأولى, ١٤٢٤هـــ.

٦٦-نظريات الإعجاز القرآني, للدكتور جمال الدين عبد العزيز شريف, مطبوعات معهد إسلام المعرفة بجامعة الجزيرة بالسودان.

٦٧- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم, لأحمد سيد محمد عمار، دار الفكر بدمشق, الطبعة الأولى ١٤١٨هـــ.

٦٨-النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن), لعلي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـــ) تحقيق: محمد خلف الله أحمـــد ومحمـــد زغلـــول, دار المعارف بمصر, الطبعة الثالثة.

٦٩-وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان, لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكـــان, تحقيق: إحسان عباس, دار الثقافة, لبنان, بدون طبعة.